القطة التي أنقذت الكتب

ترجمة
ميسرة عفيفي

سوزوكي ناتشوكاو

«هل تريد أن تغدو مجرد مخزن للمعلومات؟»

رينتارو ناتسوكي مجرد طالب ضعيف في الثانوية، انفصل والداه وهو صغير، ثم ماتت والدته في شبابها، ولذا كفله جده حين وصل إلى المرحلة الابتدائية. ومنذ ذلك الحين وهو يعيش مع جده لوحدهما. يملك جده مكتبة صغيرة لبيع الكتب القديمة تُسَمى «مكتبة ناتسوكي» تقبع في ركن مهمل من أركان المدينة. ثم فجأة يموت جده هذا. فتقرر أن تكفله عمته التي لم يلتق بها من قبل، فأخذ يحزم كتب المكتبة للتخلص منها، عندها ظهر أمامه قط عتابيّ من عمق رفوف الكتب يتحدث حديث البشر. يخبره القط بحاجته إلى المساعدة من أجل إنقاذ الكتب.

«لقد افتتح جدك هنا مكتبة رائعة لبيع الكتب القديمة، رغبة في أن يقرأ أكثر عدد ممكن من الناس تلك الكتب الرائعة، وكانت عقيدته أن بذلك سوف تعود الأمور التي تشوهت إلى وضعها الصحيح؛ بمعنى أن تلك هي الطريقة التي اختارها جدك».

رواية يابانية تُرجمَت إلى أكثر من 35 لغة حول العالم وحققت أعلى المبيعات منذ صدورها، وتُعَد واحدة من أهم الأعمال الصادرة حديثًا في الأدب الآسيوي.

سوسكيه ناتسوكاوا

القِطَّة التي أنقذت الكُتُب

ترجمة: ميسرة عفيفي

مراجعة: محمد عضيمة

منشورات نادي الكتاب

القِطَّة التي أنقذت الكُتُب

تأليف: سوسكيه ناتسوكاوا

ترجمة: ميسرة عفيفي

الطبعة الأولى - 2024

978-603-92037-0-4

رقم الإيداع: 1444/10174

本を守ろうとする猫の話 ترجمة لـ

夏川草介

2017 Sosuke NATSUKAWA

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

منشورات نادي الكتاب

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك عبد العزيز - مجمع الفناء الخلفي

publications@club-book.com

يُمنَع نسخ أو إرسال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات أو استرجاعها دون إذن خطي من الناشر.

يمكنك شراء الكتاب من الموقع

www.club-book.com

@BC__Pub

(جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تُعبِّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها)

المحتويات

فصل تمهيدي: بداية الحكاية 7

الفصل الأول: المتاهة الأولى «سَجّانُ الكُتَبِ» 21

الفصل الثاني: المتاهة الثانية «مُمَزّقُ الكُتبِ» 73

الفصل الثالث: المتاهة الثالثة «بَائِـعُ الكُتُـبِ» 129

الفصل الرابع: المتاهة الأخيرة 187

فصل ختامي: نهاية الحكاية 253

فصل تمهيدي

بداية الحكاية

أولًا، وقبل كل شيء، رحل الجد ولم يعد له وجود.

الحكاية جدُّ عنيفة منذ البداية، ويبدو أنَّ هذه حقيقة لا يمكن تغييرها.

حقيقة لا يستطيع المرء فعل شيء حيالها، كشروق الشَّمس في الصباح، وخواء المعدة وقت الظهيرة. فحتى لو أغمض رينتارو عينيه، وسدَّ أذنيه، وقرر أن يتجاهل تلك الحقيقة، فلن يعود الجد. وقف رينتارو ناتسوكي أمام تلك الحقيقة اللاذعة صامتًا بلا حِراك.

ربما بدا لمن حوله فتىً رابطَ الجأش، وربما شعر بعض المعزّين في أثناء مراسم الجنازة بالاستياء من ذلك. كان رينتارو هادئًا جدًّا، بالنسبة إلى طالب في المرحلة الثانوية فَقدَ أحد أفراد العائلة فجأة. كانت تخيم عليه مشاعر غريبة وغامضة، وهو يقف هكذا صامتًا بلا حِراك في زاوية من زوايا صالة الجنازات يرفع ناظريه إلى صورة الجد.

في الواقع، لم يكن رينتارو من هؤلاء الباردين الهادئين

بشكل خاص، فقط لم يستطع الربط بمهارة بين جده الذي كان هادئًا ويعيش جوًّا من التسامي واعتزال العالم، وبين «الموت»، هذا المفهوم الذي لمَّا تعتد أذناه عليه بعد.

كان رينتارو يعتقدُ، وبشكل طبيعيّ جدًّا، أنَّ الموت نفسه لن يستطيع الاقتراب من جده الذي كان يخوض غمار الحياة اليومية الرتيبة بشجاعة لا تعرف الكلل أو الملل. كان ينظر إليه وهو مستلقٍ على ظهره وقد توقف عن التنفس فجأة، وكأنه يتأمل مشهدًا في مسرحية رديئة.

والواقع، هو أن منظر جده داخل التابوت الأبيض لم يختلف عما كان عليه في المعتاد. اعتقد لوهلةٍ أنه لن يستغرب إذا ما قام الجد فجأة كأنَّ شيئًا لم يكن، ثم تمتم: والآن... ثم راح يغلي الماء على مدفأة الكيروسين ليُعدّ الشاي بيديه الخبيرتين. وبالرغم من ذلك الاعتقاد، فالحقيقة لم تكن كذلك.

كان الوقت يمر عبثًا، والجد لم يفتح عينيه، وبالتأكيد لم تلمس يداه كوب الشاي المفضل، فقط ظل ممددًا داخل التابوت في هدوء ومهابة أيضًا.

في قاعة الجنائز، تواصلت تلاوةٌ من الكتاب البوذي المقدس بشكلٍ رتيبٍ يبعث على النعاس، وكان المعزون القافلون والقادمون يوجهون إلى رينتارو، ومن حين إلى آخر، كلمات مقتضبة خافتة.

الحقيقة الأولى هي: إن الجد رحل، ولم يعد له وجود.

ببطءٍ ضربت هذه الحقيقة جذورها في أعماق رينتارو.

- حكاية فظيعة يا جدي.

لا صوتَ يجيب على تلك الهمسات الخافتة التي تسربت من فمه أخيرًا.

*

رينتارو ناتسوكي ليس أكثر من طالب ثانوي. قصير القامة يضع نظارات طبية سميكة، أبيض البشرة، صموتٌ، لياقته البدنية ضعيفة. طالب ثانوي عادي لا يتفوق في مادةٍ ما بشكل خاص وليست له رياضة مفضلة.

انفصل والداه عن بعضهما في طفولته، وتوفيت الوالدة شابة، وعندما حان دخوله المدرسة الابتدائية استقدمه الجد ليعيش معه في البيت، ومنذ ذلك الحين وهما يعيشان معًا، هذه ظروف نادرة إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى طالب ثانوي، غير أنَّها بالنسبة إليه إحدى مظاهر الحياة اليومية الرتيبة.

ولكن إذا مات الجد، فالحكاية ستكون صعبة إلى حدٍّ ما.

وفي النهاية جاء الموت فجأة.

عندما ذهب إلى المطبخ ذات صباح شتائي، وكانت البرودة أشد من المعتاد، لم يجد جده الذي كان قد أَلِفَ الاستيقاظ باكرًا في الصباح، فاستغرب رينتارو، واختلس النظر إلى غرفته اليابانية الطراز، المعتمة قليلًا، فوجده داخل الفراش مقطوع الأنفاس، وبدا في هيئته الممدة كأنه تمثال منحوت بلا ألم أو

معاناة، أبلغه طبيب العيادة المجاورة الذي أسرع في المجيء أنه أصيب على الأرجح بذبحة قلبية مفاجئة، فمات على الفور قبل أن يتألم أو يعاني.

- الموت بسلام.

إذا جمعنا مقطعي الكانجي «يذهب 往く»، و«يحيا 生きる»، سيكون لدينا معنى غريب للعبارة، أي: الانتقال إلى العالم الآخر، ما أربك رينتارو بشكل من الأشكال هو إحساسه أنها عبارة غريبة وفي غير محلها.

يبدو أنَّ الطبيب أدرك بدقةٍ ظروفَ رينتارو الصعبة، فأسرع إلى إبلاغ إحدى قريباته التي يناديها: «عمة».

جاءت العمة من سكنها البعيد فجأة قبل أن ينقضي وقت طويل ودون أن يدري رينتارو كيف حدث ذلك.

قامت تلك السيدة طيبة القلب بكل الإجراءات اللازمة، من استخراج شهادة الوفاة وحتى إلى مراسم الجنازة، بسرعة وبراعة ملحوظتين.

ومهما قيلَ: إن رينتارو كان يشاهد ذلك كله دون أن يشعر حقا بواقعية الحدث، فلا يعني أنه لم يفكر في إظهار ملامح الحزن قليلًا على وجهه. ولكن مهما تأمّل منظره وهو يذرف الدموع أمام صورة الجد، فإنه يجد ذلك منظرًا غير طبيعي، لا بل سيكون مشهدًا فكاهيًّا وكاذبًا. ويستطيع بسهولة أن يتخيل جده وهو يبتسم، داخل التابوت، ابتسامة خافتة مرة ويقول موبخًا: «توقف عن هذا!».

وطالما أن هذا هو الوضع ودّع جده في هدوء تام حتى النهاية.

وبعد أن ودعه، بقيت العمة أمامه بوجهٍ قلق، وبقيت كذلك مكتبة بيع الكتب.

لم يكن ما تركه الجد يصل إلى درجة وصفه بالديون، وكذلك لم يكن بالقيمة التي توصف بتركة ثرية.

*

كانت «مكتبة ناتسوكي» عبارة عن محل لبيع الكتب القديمة في ركن من أركان الحي.

تردد صوت ذكوريّ في أذنيّ رينتارو:

- تتكدس لديك هنا كتبٌ رائعة يا ناتسوكي.

- أحقًا؟ أجاب رينتارو بإيجاز متأملًا الرفوف الضخمة التي أمامه فقط دون أن يلتفت إلى الخلف. أمام ناظريه رفوف تعجُّ بكتبٍ لا حصر لها من الأرض حتى السقف.

شكسبير، وردزورث، ودوماس، وستاندال، وفوكنر، وهمنغواي، وغولدنغ... تحفٌ أدبيةٌ عظيمة من جميع أنحاء العالم، إذا واصلنا إعطاء الأمثلة، فلن ننتهي، ينظر إليها رينتارو بمهابة ووقار. جميعها كتب قديمة صدرت منذ سنين طويلة، ولكن نتيجة الجهد الذي بذله جده في حفظها وصيانتها دون تكاسل لا تظهر عليها آثارٌ للتلف.

قُرب قدميه مباشرة مدفأة كيروسين، مرت عليها سنون طويلة، تتوهج نارها حمراء عالية، ومع ذلك، فإنَّ الثمار قليلة،

فداخلُ المحل مايزال باردًا إلى حدٍّ كبير، لكن رينتارو يدرك جيدًا أنَّ شعوره بالبرودة ليس بسبب درجة الحرارة فقط.

- مبدئيًا، سآخذ هذا الكتاب وهذا الكتاب، فكم سعرهما معًا؟

أدار رينتارو عنقه بخفة، وضيّق عينيه، ثم أجاب بصوتٍ خافت:

- 3200 ين.

- قوة ذاكرة ممتازة... كالعادة دائمًا.

ريوتا أكيبا، الطالب في المدرسة الثانوية نفسها الذي يكبره بسنة، ابتسم ابتسامة مُرة.

قامته فارعة ممشوقة، لعينيه بريق واضح، وعنده ثقة بالنفس فائضة وهادئة، ولكنها غير منفرةن وهو إلى جانب جسمٍ متينٍ اعتنى به وعززه داخل فريق كرة السلة في المدرسة، يمتلك عقلًا يُعدّ من أفضل عقول المدرسة، فضلًا عن كونه ابن طبيب الحي، فهو يواظب على تعلم الكثير من خارج المنهاج، بمعنى أنه على النقيض من رينتارو في كل شيء حرفيًّا.

- أوه، يا لها من صفقة!

قالها أكيبا وهو يضع على طاولة الحساب خمسة أو ستة كتب. كان هذا الطالب الأكبرُ منه الذي يفوقه دراسيًّا ورياضيًّا، قارئًا نهمًا بشكل مدهش، وكان أيضًا من زبائن مكتبة ناتسوكي الدائمين وقليلي العدد.

- مكتبة رائعة بلا شك.

- شكرًا جزيلًا، خذ وقتك في اختيار ما تحب كما تشاء، إنها تنزيلات إغلاق المحل.

صَعُبَت على أكيبا معرفة ما إذا كانت نبرة رينتارو الرتيبة تلك، جادة أو مازحة.

فالتزم الصمت هنيهة، ثم قال بنبرة متحفظة قليلًا:

- لابد أن فقدان الجد حدثٌ ثقيل عليك.

ثم أعاد بصره إلى رفوف الكتب واستمر في هيئته اللامبالية التي تكشف إلى أي حد يعشق الكتاب.

- أمر مفاجئ تمامًا، لقد كان يقرأ الكتب هنا في استرخاء قبل وقت قليل.

- مشاعري نفسها.

بالرغم من التشارك في المشاعر، ولكن لا يوجد ود هناك ولا ترحيب، إنها مجاملة اجتماعية لا أكثر، ولم يبدُ على أكيبا اهتمامه بذلك، بل نظر فقط جهة الطالب الأصغر منه وهو يتأمل رفوف الكتب.

- لكن قرارك بالتغيب عن المدرسة دون إذن حين مات جدك أمر لا يثير الإعجاب، فالجميع قلق عليك.

- من تقصد بالجميع؟ لا أتذكر أن لدي صديقًا يقلق بشأني.

- بالفعل، أنت بلا أصدقاء تقريبًا. معك الحق في أن تعيش دون أن تحمل هم من يهتم بشأنك.

ومع نظرته إلى الأمر نظرة إيجابية بلا تحفظ، تابع أكيبا:

- ولكن من المؤكد أن جدك قلق، أليس كذلك؟ ربما لمَّا يستطع أن يتحول إلى بوذا بعد، لشدة قلقه عليك، وربما يحوم حولك الآن في هذا المكان، ينبغي ألا تسبب إزعاجًا لكبار السن هكذا!

كانت الكلماتُ عنيفةً، ولكن صوت أكيبا كان فيه شيء من اللطف والرِّقّة إلى حدٍ ما.

لعل هذا الطالب المتفوق دراسيًّا، وبسبب ارتباطه بمكتبة ناتسوكي، يهتم بـ رينتارو المنعزل دائمًا في البيت، فهو يتحدث إليه بودٍّ من حينٍ إلى آخر، في المدرسة أيضًا. ومن الواضح كذلك أنَّ مجيئ أكيبا إلى المكتبة في مثل هذا الوقت العصيب الذي يمر به رينتارو والجلوس معه طويلًا يعود إلى رغبة أكيبا في التخفيف عن رينتارو بطريقته الخاصة.

ظلّ أكيبا يحدق إلى رينتارو الصامت فترةً، ثمَّ استأنف الكلام أخيرًا:

- هل ستغير إقامتك وتترك هذا البيت حقًا؟

أومأ رينتارو برأسه وهو ينظر إلى رفوف الكتب قائلًا: «ربما»، ثم أردف:

- من المقرر أن تأخذني العمة للعيش معها.

- وإلى أين ستذهبان؟

- إنني أراها لأول مرة، ولا أعرف حتى أين تقيم.

كلمات رينتارو التي جاءت بسلاسة ووضوح وبنبرة واحدة جعلت من الصعب قراءة مشاعره.

هز أكيبا كتفيه هزة خفيفة، ثم نظر إلى الكتب التي بين يديه.

- وهذا ولهذا أعلنتم عن تخفيضات بسبب تصفية المكتبة؟

- بالضبط.

- ليس هناك مكان آخر فيه مثل هذا المخزون الجيد من الكتب. في هذا الوقت من النادر وجود مكتبة تبيع طبعة مجلدة من أعمال بروست الكاملة، بل حتى كتاب «الروح المسحورة» الذي ظللتُ أبحث عنه طويلًا عثرتُ عليه هنا.

- لو سمع جدي ذلك كان سيفرح.

- لو ظل على قيد الحياة، لأفرحته أكثر وأكثر، فأنا أعدُّ هذا المكان كنزًا، حيث أشترى بسهولة كتبًا ثمينة جدًا لمجرد أنني صديقك، وها أنت على حين غفلة ستغير السكن.

كانت كلمات أكيبا غير المتكلفة هي الوجه الآخر للطفه، ورينتارو لا يعرف كيف يرد عليها ردًّا ذكيًّا، فقط ظل يحدق إلى جدران المكتب دونما حركة.

تلال من الكتب السميكة تتراكم فوق الرفوف.

حتى لو سلّمنا أن تلك مكتبة متخصصة في بيع الكتب المستعملة، إلا أنها مخزون كتب لا علاقة له بموضة الكتب الرائجة وتغيراتها، لدرجة أن المرء ينبهر من قدرة المالك على إدارة أعمال المكتبة بهذه التشكيلة من الكتب، فعدد الكتب التي توقفت طباعتها لم يكن قليلًا، ولذا، حتى لو طرحنا عنصر المجاملة جانبًا، فإن كلام أكيبا يشير إلى حقيقة لا مراء فيها.

- متى ستنتقل؟

- ربما بعد أسبوع.

- ربما!! أنت دائمًا كعادتك غير دقيق.

- حتى لو فكرتُ بالأمر، فليس هناك حل آخر، وأنا لا أملك حق الاختيار.

هز أكيبا كتفيه مرة أخرى بخفة وقال:

- قد يكون ذلك صحيحًا.

ثم نظر إلى التقويم الصَّغير الملصق جانب طاولة الحساب وأكمل:

- الأسبوع القادم، يعني أعياد الميلاد، سيكون الوضع ثقيلًا عليك.

- لا تعنيني بشكل خاص، وأنا بعكسك تمامًا ليس عندي أي خطة معينة لأجلها.

- ذكّرتني بها، ولابد من تنظيم جدول لخطط متعددة،

وهذا أمر مزعج للغاية، إلى حدٍّ أنني أودّ قضاء ليلة الميلاد بمفردي مرة واحدة في انتظار قدوم سانتا كروز.

ثم ضحك أكيبا قليلًا بصوتٍ عالٍ هههههه... علَّق رينتارو بشكل هادئ تمامًا: حقًا ! فذُهل أكيبا، ثم تنهد بأسى متابعًا:

ـ إذا نظرنا إلى وضعك، فليس هناك أي مبرر كي تجتهد من أجل الذهاب إلى المدرسة، ولكن على الطائر المهاجر ألا يعكر، حيث أقام، ففي الفصل من يقلق عليك.

ثم ألقى أكيبا نظرة إلى مفكرة وأوراق موضوعة فوق طاولة الحساب «مفكرة التواصل» التي تُرسل للطالب الغائب.

لم يكن أكيبا هو الذي جاء بها، بل جاءت بها منذ دقائق طالبة تشغل منصب مسؤول الفصل.

زميلته التي تُدعى: "يوزوكي" تسكن في المربع السكني نفسه، ويعرفها رينتارو مذ كانا معًا في المدرسة الابتدائية نفسها. ولأنها قوية، أخت الرجال، وحيوية، لم تكن قريبة بشكل خاص من رينتارو الصموت الانعزالي.

وحتى عندما جاءت لتسليمه المفكرة، ورأت رينتارو يحدق شاردًا في رفوف المكتبة، تنهدت بطلاقة شديدة وقالت:

«تعتزل العالم بوجه خال من الهموم... هل أنت على ما يُرام؟»

على ما يُرام؟ لوى رينتارو عنقه متسائلًا، فقطبت مسؤولة الفصل حاجبيها بوضوح، وتوجهت إلى أكيبا الذي يقف جانبًا:

«وجميلٌ أن تلهوَ معه أنت أيضًا يا أكيبا... أعضاء فريق كرة السلة يبحثون عنك».

بلا خوف قالت ذلك لزميلها الأكبر منها، وانطلقت خارجة بسرعة.

كان هذا السُّلوك المباشر أكثر طبيعية بكثير مما لو تصرفت بتعاطف وتكلف مؤذيين، هذه هي شخصية يوزوكي في طريقة اهتماهها بالآخرين.

- كما هي بلا تغيير، مسؤولة الفصل قوية الشكيمة، يعلق أكيبا.

- عندها شعور قوي بالمسؤولية، فهي لم تكن مضطرة للمجيء بنفسها كي تسلمني مفكرة التواصل...

تعاطف رينتارو معها صادقًا؛ لأنه تسبب في إزعاجها؛ بسبب الجيرة، فأتته في هذا الطقس البارد، حيث تصير الأنفاس بخارًا أبيض.

-هذه كلها بستة آلاف ين فقط.

رفع أكيبا أحد حاجبيه قائلًا:

- هذا ليس رخيصًا كما توقعت لتخفيضات إغلاق المكتبة.

- التنزيلات 10%، وأكثر من ذلك لا يمكن، فهي جميعها أعمال مشهورة.

- هذا أنتَ تمامًا يا ناتسوكي.

ضحك أكيبا وأخرج الأوراق النقدية من الحافظة، ثم تناول الشّال والقفازات التي كان قد رمى بها فوق الطاولة، وأضاف وهو يعلق حقيبته بالكتف:

- تعالَ إلى المدرسة غدًا.

خرج من المكتبة بابتسامة حيوية لا تختلف عن المعتاد.

وفجأة ساد الهدوء أرجاء المكتبة، عندما انتبه رينتارو كان الغروب على الجانب الآخر من البوابة قد صبغ السماء بلون أرجواني، وفي ركن المكتبة، أخذت مدفأة الكيروسين تصدر صوتًا خافتًا يشير إلى قُرب انتهاء الوقود.

حان وقت الصعود إلى الطابق الثاني لإعداد وجبة العشاء، كان إعداد وجبة العشاء هي مهمة رينتارو حتى عندما كان الجد موجودًا، وبالتالي، فليس في الأمر اختلاف كبير.

غير أن رينتارو ظل يتأمل الباب، بعض الوقت، دونما حراك.

مالت شمس الغروب أكثر، وانطفأت المدفأة، وأخذت رياح باردة تملأ المكتبة، ومع ذلك لم يحرك رينتارو ساكنًا.

الفصل الأول

المتاهة الأولى
«سَجَانُ الكُتَبِ»

مكتبة ناتسوكي متجر صغير ينزوي هناك في ركن شارع من الحي القديم.

لبنائها شكلٌ فريد إلى حدٍّ كبير.

ممرٌ طويلٌ ورفيعٌ يمتد مستقيمًا من باب المكتبة حتى عمقها، وعلى الجانبين أُقيمت رفوف تطل عليه وهي مكتظة بالكتب من الأرض حتى السقف. وفوق الرأس عُلّقت مصابيحُ قديمة الطراز، تنعكس إضاءتها الناعمة على الأرضية المفروشة بألواح خشبية مصقولة.

لا تزين المحلّ أي زينة خاصة، باستثناء مكتب صغير للحساب وُضع في منتصف الممر الذي ينتهي بحائط صُنع من ألواح خشبية عشوائية. ومع أنه يتوقف هناك إلا أنه يبدو من مدخل الباب المضيء ممتدًا إلى عمق بعيدٍ، ويبدو للحظة، وهو محاط بالكتب، مستمرًا في الظلام بلا نهاية.

في ذاكرة رينتارو، نُقشت صورة الجد وهو يجلس وراء

مكتبه الصَّغير، تحت المصباح، فاتحًا كتابه يقرأ في هدوء. إنها لوحة ذابلة بظلال متميزة كأنما رسمها بجدية رسام غربي متمرس.

- للكتب طاقة هائلة.

عبارة الجد التي كانت يرددها دائمًا.

كان صموتًا في العادة، ولا يتكلم مع حفيده إلا عند الحديث عن الكتب فقط، فيُضيّق عينيه الضيقة أصلًا، ويخاطبه بكلمات مفعمة بالحماس.

- للكتب القديمة قوة كافية لتخطى العصور. إن قرأت حكايات كثيرة لها طاقة وقوة سيكون لك أصدقاء يشدون عزمك دائمًا.

من جديد، تأمل رينتارو الكتب التي تملأ رفوف المكتبة الصَّغيرة.

ليس هناك بينها الكتب الشائعة والأكثر مبيعًا، ولا المجلات والمانغا ذات الشعبية الهائلة، في هذا العصر الذي لارواج فيه للكتب أصلًا، لن يكون بمقدورهذه الكتب أن تساعد المكتبة على الاستمرار. هكذا وبهذه الكلمات أعرب زبائنه الدائمون، أكثر من مرة، عن قلقهم. ولكن العجوز الصَّغير الحجم الذي يدير المكتبة، كان يرد فقط بإيماءة خفيفة من رأسه، ولم يحاول أن يحرك أعمال نيتشه الكاملة ولا دواوين إليوت القديمة التي تحتل مدخل المكتبة.

كانت تلك المساحة التي صنعها الجد، موضع راحة وأمان بالنسبة للحفيد الذي يميل إلى العزلة. لم يجد رينتارو له مكانًا في المدرسة، فأخذ يقلّب صفحات الكتب تباعًا، وغرق في القراءة بحماس.

هكذا باتت المكتبة ملجأ رينتارو وملاذه الأخير، ولكنه الآن سيضطر إلى ترك مكتبة ناتسوكي لبيع الكتب تلك خلال أيام.

- حكاية فظيعة يا جدي!

حين تسربت تلك الهمسة من فمه، سمع صوتَ جرس هادئ، فالتفت إلى الخلف.

رن الجرس الفضي المعلق على مقدمة الباب.

وذلك علامة على دخول زبون إلى المكتبة، ولكن يُفترض ألا يدخل الزبائن وقد عُلقت على الباب لوحة "مغلق".

يبدو أنَّ الشَّمس في الخارج قد غابت، على الأرجح، تمامًا وغرق المكان في عتمة الليل، اعتقد رينتارو أنه لم يمضِ سوى وقت قصير على مغادرة أكيبا المحل، ولكن من الواضح أن وقتًا طويلًا قد مضى دون أن يدري.

عدَّ ذلك توهمًا، وعاد إلى التحديق في رفوف المكتبة:

- يا له من محلّ كئيب بشكل فظيع!

ما إن سمع هذا الصوت حتى شعر بفزع مفاجئ.

التفت خلفه، ولكن لا أثر لبشر عند الباب.

- إذا وصلتْ الكآبة إلى هذا الحد، فإن هذه الكتب العظيمة هي الأخرى ستفقد رونقها.

كان الصوت الذي يسمعه يأتي على العكس من أعماق المكتبة. أدار رينتارو بصره مرتبكًا، ولم يكن ما عثر عليه بشرًا، بل كان قِطًّا عَتّابيًّا بجسد ضخم مُبقع بالأصفر والبني. كان قطًّا كبيرًا بني اللون من منتصف وجهه حتى ظهره، أما بطنه وأطرافه الأربعة، فيكسوها فرو كثيف ناصع البياض. عيناه فقط تشعان بخضرة غامقة داخل عتمة خلفه، وتحدقان إلى رينتارو مباشرة.

عندما اهتز ذيله الرشيق همس رينتارو:

- قطٌّ؟

- وهل القطُّ لعنة؟

أجاب القط

بلا أي خطأ ردّ القط: "وهل القط لعنة؟"

ومع ذلك، فإن رينتارو الذي بوغت إلى حدٍّ ما، أظهر بروده الذي يتميز به، ثم أغمض عينيه مرة واحدة، وعدّ ثلاث ثوانٍ بتأنٍ، وجرب أن يعيد فتحهما من جديد.

فروةٌ بثلاثة ألوان فاتحة، وذيلٌ كثيف، وعينان تلمعان بحدة، وأذنان على شكل مثلث متساوي الساقين. قط ليس فيه عيب واحد.

اهتز شاربُ القط العتابي الطويل.

- هل في عينيك خللٌ ما أيها الفتى الصَّغير؟

صوت يخلو من الأدب والاحترام.

- في الحقيقة...

بدا رينتارو متلعثمًا.

- بصري ليس على ما يُرام من القوة، ولكن أدرك تمامًا أن أمام عيني قطًّا يتحدث لغة البشر.

- رائع.

هز القط العتابي رأسه بتأنٍ، ثم تابع الحديث.

- أنا القط العتابي تورا.

لا شيء أكثر غرابة من أن يقوم قط بتقديم نفسه فجأة، ومع ذلك أجابه رينتارو هذه المرة.

- وأنا رينتارو ناتسوكي.

- أعلم. وريث مكتبة ناتسوكي.

- وريث؟

ارتبك رينتارو من الكلمة التي لم يعتد عليها.

- آسف، ولكنني لست أكثر من شخص انعزالي، إذا كنت تريد السُّؤال عن الكتب، فجدي أدرى بها، ولكنه لم يعد موجودًا.

- ليست هناك مشكلة. من أريده هو أنت الوريث.

قال القط العتابي بنبرة متعجرفة.

ثم نظر إلى رينتارو نظرات ثاقبة بعينيه الخضراوين اللتين ضيّقهما قليلًا.

- أحتاج إلى مساعدتك.

صدمه فجأة بتلك الجملة.

- مساعدة؟

- أجل، مساعدتك أنت.

- ماذا تقصد بالمساعدة...؟

- هناك كتبٌ كثيرة مسجونةٌ في مكانٍ ما.

- كتب؟

- أنت لست ببغاء. فلا تردد كلامي مثل الأبله!

طارت تلك الكلمات وكأنما يصفعه بها على وجهه مباشرة.

استمر القط في الحديث بنبرة لا تتغير ودون مبالاة برينتارو الذي أخذته المفاجأة.

- ينبغي إنقاذ تلك الكتب السجينة، وأريدك أن تساعدني!

بدت العينان الخضراوان وكأنهما تشعان بريقًا زاهيًا.

ظل رينتارو صامتًا لفترة وهو يحدق إلى القط العتابي، ثم رفع يده اليمنى ببطء ووضعها على إطار نظارته.

وهذه هي حركته المعتادة عندما يغرق في التفكير.

«يبدو أنني في منتهى الإرهاق...»

أغمض رينتارو عينيه، وراح يفكر بشكل عميق صامتًا ويده على إطار نظارته كما هي.

لقد تراكم التعب بسبب وفاة الجد ومراسم الجنازة التي لم يكن معتادًا عليها، فلا شك أنه نام دون أن يدري وهو الآن في حلم عميق.

فتح عينيه بتأنٍ وهو يفكر هكذا، ولكن أمام عينيه قط عتابي يجلس في استرخاء.

"إن هذا لأمر عصيب..."

«بالمناسبة لقد بقيتُ أيامًا أحدق في رفوف الكتب فقط بلا معنى، وتراكمت الكتب التي أود قراءتها. تُرى أين وضعتُ رواية «كانديد» التي لمَّا أنتهِ منها؟». بدأت مثل هذه الأفكار التي لا أهمية لها تجول في وعيه الباطن.

- هل تسمعني أيها الوريث؟

مرة أخرى سُمع صوت القط العتابي الحاد، فأخرج رينتارو من مستنقع التفكير.

- سأكرر مرة أخرى، أريد مساعدتك من أجل إنقاذ الكتب.

- حتى لو قلت مساعدتي...

اجتهد رينتارو في اختيار الكلمات.

- آسف، لا أعتقد أنني سأكون مفيدًا، فأنا لست أكثر من طالب ثانوي انعزالي، كما قلت لك منذ قليل.

أجاب رينتارو بجدية شديدة وهو جالس على مقعده. لقد كان للقط العتابي من القوة الضاغطة ما يجعله يجيب بتلك الجدية.

- ليست هناك مشكلة، أعرف جيدًا أنك مجرد فتى انعزالي كئيب كآبة عميقة، وليست لك أي ميزات ذات شأن. أطلب منك المساعدة وأنا مدركٌ ذلك.

إنه قط تقطر السموم من فمه بسلاسة شديدة.

- إذا كنت تدرك ذلك، فلا ضرورة أن تطلب مساعدتي أنا بصفة خاصة، هناك بشر لا يُحصَون يمكنك الاعتماد عليهم أكثر مني.

- هذه حقيقة لا داعي لذكرها.

- علاوة على ذلك، فقدتُ جدي للتو وفي حالة شديدة من الهم والغم.

- أعلم هذا أيضًا.

- لماذا إذًا...

- ألا تحب الكتب؟

قاطع صوتُ القط العتابي الغليظ كلامَ رينتارو برفق، ولكنه

رفق صارم لا يقبل الاعتراض، كان محتوى الكلام مجهول المعنى، ولكنه صارم ومهيب مهابة تلغي المنطق.

حدقت العينان الخضراوان في رينتارو.

- بالتأكيد أحب الكتب.

- لِمَ الحيرة والتردد إذًا؟

كان موقف القط العتابي مهيبًا في جميع النقاط مقارنة برينتارو، مرة أخرى وضع رينتارو يده على إطار نظارته.

لقد فكر بمقدار ما يستطيع محاولًا فهم ما يحدث، ولكنه بالتأكيد لم يصل إلى إجابة منطقية، فالوضع عصيّ على الفهم حقًّا.

- الأمور المهمة تكون عصية على الفهم دائمًا، أيها الوريث...

يتحدث القط كأنه قرأ ما في ذهنه...

ـ ولكن أغلب البشر يعيشون حياتهم اليومية دون الانتباه إلى هذه الحقيقة البديهية. «لن تستطيع رؤية الأمور بوضوح ما لم تنظر إليها بقلبك، والأمور الأكثر أهمية لا تُرى بالعين».

تباعد حاجبا رينتارو من الدهشة.

- أوه! لم أكن أتوقع أنني سأسمع اقتباسًا من رواية «الأمير الصَّغير» على فم قط.

- هل سانت إكزوبيري لا يعجبك؟

- بل إنه أحد كُتابيّ المفضلين.

وضع رينتارو يده برفق على رف الكتب وهو يجيب.

- ولكن أعتقد أن أفضل أعماله هو «طيران ليلي» ويصعب أيضًا إهمال «بريد الجنوب».

- عظيم.

ابتسم القط... هذا السُّلوك الهادئ أيقظ لدى الفتى شعورًا بالحنين؛ لأنه يشبه الجد إلى حدٍّ ما. غير أنَّ الجد لن يكون بطلاقة اللسان هذه.

- هل ستساعدني؟

ردًّا على تكراره هذا السُّؤال لوى رينتارو عنقه قليلًا.

- هل أستطيع الرفض؟

- أجل.

أجاب القط في منتهى السرعة.

بيد أنه استمر في الحديث بصوت يمتلئ بالإحراج.

- ولكن سأُصاب بخيبة أمل عميقة.

ابتسم رينتارو ابتسامة متكلفة.

يظهر فجأة ويطلب المساعدة وإذا رفضتَ يقول: إنه سيُصاب بخيبة أمل. تُرى هل عدم شعوره بالاستياء يعود إلى صدق كلمات القط وعدم تكلفه، بالرغم من تفاصيل الحدث التي تتعارض مع المنطق؟

أو ربما لأنه يشبه جده إلى حدٍّ ما.

أعاد رينتارو التحديق في القط، ثم قال:

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- تتبعني فقط.

- إلى أين؟

- تعال!

استدار القط برشاقة.

ثم تقدم بخطوات صامتة في اتجاه عمق المكتبة المظلمة وليس في اتجاه الباب حيث غابت الشَّمس تمامًا.

أدار ظهره لرينتارو ومشى بخطوات واثقة. تبعه هذا الأخير بتردد، ثم أحس بدوار غريب بعد أن سار بضع خطوات.

يمتد عمق المكتبة ويطول قليلًا، ولكن مهما كان، فهي في النهاية مكتبة صغيرة لبيع الكتب القديمة في الحي، وإن تابعت، فستصطدم فورًا بالحائط الخشبي نهايةَ الممر.

من المفترض أن يكون هذا الممر مسدودًا في نهايته، ولكن ذلك اليوم لم يكن مسدودًا، وامتد بلا نهاية.

امتد الممر المفروش بألواح خشبية بلا نهاية محاطًا برفوف كتب سميكة وثقيلة من الجانبين. ومصابيح السقف القديمة الطراز تتابعت إلى مسافة بعيدة ليس لها نهاية، ومن منتصف الممر بدت الكتب المرصوصة على الرفوف جديدة تمامًا على

ذاكرته. ولم تكن فقط كتبًا عصرية بأغلفة عادية، بل كانت كتبًا ذات أغلفة فخمة وبديعة، كتب بأغلفة يابانية قديمة وكتب كلاسيكية رائعة مجلدة بجلد بقر طبيعي ومطرزة بالذهب.

- مازال...ما....ز..ا

طارت من فم رينتارو المنبهر كلمات لا معنى لها.

استدار القط برأسه إلى الخلف:

- هل خفت أيها الوريث؟ إذا قررت الهروب، فافعل ذلك الآن.

- أنا فقط أستغرب متى ازدادت كتب المكتبة إلى هذا الحد في غفلة مني.

أجاب رينتارو وهو يحدق أمامه إلى ما لا نهاية، ثم حول نظره إلى القط جوار قدميه وهز كتفيه يائسًا.

- بوجود هذه الكمية من الكتب أستطيع الاستمرار في عزلتي عن المجتمع بكل متعة، عليّ أن أطلب من عمتي تأجيل الانتقال.

- روح الدعابة لديك ليست على ما يُرام، ولكن نواياك سليمة. هناك أمور كثيرة جدًّا لا توافق المنطق في هذا العالم. والسلاح الأفضل للاستمرار على قيد الحياة ليس المنطق ولا القوة، بل الفكاهة.

قال القط العتابي ذلك بنبرة مهيبة تشبه نبرة الفلاسفة القدماء، ثم واصل خطواته في هدوء.

- هيا فلنذهب! أيها الوريث.

بدأ رينتارو يمشي ببطء منقادًا لهذا الصوت القوي.

على الجانبين تمتد بلا نهاية رفوف كتب سميكة لم يسبق له رؤيتها من قبل. إنسان وقطٌ يسيران بصمت في هذا الممر العجيب المحاط بأشعة ضوء باهت.

وأخيرًا بدأ المكان يمتلئ بأشعة باهرة للعيون.

*

بلطف وتحت أشعة شمس مشرقة، تتمايل مع الريح شجرة زهرة الحرير.

كان أول ما رأت عينا رينتارو بعد اختفاء الأشعة الناصعة البياض هو هذا المشهد الهادئ.

تحت أقدامه تمتد أرض مبلطة بأحجار تلمع في بياض أشعة الشَّمس الساقطة عليها، رفع بصره فوق رأسه، فرأى حبيبات الأشعة البراقة، المبهرة للعيون، تتساقط كلما تمايلت شجرة زهرة الحرير الكبيرة مع الريح.

همس رينتارو وهو يضيق من عينيه.

- بوابة...

أمام عينيه مباشرة سلالم حجرية مؤلَّفة من بضع درجات، وفي أعلاها بوابة مهيبة ذات سقف مغطى بالقرميد على طراز بوابات المعابد العتيقة. والباب المصنوع من قطعة واحدة كبيرة

من خشب مصقول براق، يبث إحساسًا فريدًا من الرهبة. على الباب لوحة بلا اسم، ومن حين إلى آخر تلمع فوق القرميد الياباني الشديد السواد حبيباتُ أشعة متسربة من بين فجوات الأشجار، تلمع إلى درجة مبهرة للعيون وكأنها حبيبات ماء تُنثر في الهواء.

وعندما جال بعينيه يمينًا وشمالًا وجد سورًا حجريًّا بُنيًّا يتواصل بلا انقطاع معتنىً به عناية جيدة. أمام السور لا تُرى ورقة شجر واحدة، هذا وتمتد يمينًا وشِمالًا سلالم حجرية واسعة وجميلة تتابع بلا نهاية، ولا يُرى آخرها. بالتأكيد لا أثر لبشر.

- وصلنا.

كان ذلك صوت القط عند قدميه.

- هذا هو هدفنا.

- الكتب هنا؟

- وسجينة.

رفع رينتارو رأسه مرة أخرى لينظر إلى البوابة المهيبة وإلى شجرة زهرة الحرير الكبيرة التي ترتفع فوق رأسه، تمتلئ أغصان الشجرة العملاقة بزهور كثيرة تشبه الزغب.

من المؤكد أننا في شهر ديسمبر/ كانون الأول. إذا كان الأمر كذلك، فتفتحُ زهرة الحرير أمر عجيب، ولكن رينتارو أقنع نفسه بالقوة أن انتقاد وجود زهور منفتحة أمام البوابة

الآن، أمر لا جدوى منه بعد تلك السلسلة من الأحداث التي تتجاهل المنطق.

- يا له من قصر عظيم! ربما تعادل البوابة وحدها مساحة مكتبتنا.

- لا تشغل بالك، هذا ليس أكثر من خداع. في هذا العالم ثمة بوابات عديدة عملاقة لمبانٍ متواضعة.

- بصفتي طالبَ ثانوي عنده بوابة وبيت متواضعان، أتمنى لو كانت لي تلك البوابة فقط.

- الآن فقط يمكنك التذمر والشكوى؛ لأنك إن لم تنقذ الكتب، فلن تخرج من هذه المتاهة.

فقد رينتارو النطق عند هذا الإنذار المفاجئ.

- ... لم أسمع هذا من قبل!

- بالتأكيد، ولو أخبرتك قبلها، لرفضت مرافقتي. في هذا العالم أشياء من الأفضل تجاهلها وعدم معرفتها.

- هذا فظيع...

- فظيع؟ من يجلس مكتئبًا هكذا كالأبله مثلك ليس لديه ما يخسره.

هذه الكلمات الصريحة القاطعة، دوى صداها مباشرة وبلا تردد. هذا بالضبط ما يُراد به من مقولة: "الصراحة الفظة!"

تأمل رينتارو السماء الصافية فترة، ثم همس قائلًا:

- ليس في نيتي تعنيف الحيوانات، ولكن...

وبعد أن ضغط قليلًا على إطار نظارته أضاف:

- بي رغبة للقبض على عنقك وقذفك بكل ما أوتيت من قوة.

- عظيم! هذه هي الروح المطلوبة.

تعامل القط معه بهدوء، ثم صعد درجات السلم التي أمامهما. بعد خمس درجات وصل إلى البوابة، فتبعه رينتارو على عجل.

- بالمناسبة، ماذا سيحدث إذا لم نستطع العودة؟

- لا أدري، ربما نظل نمشي أمام هذا السور الطويل إلى الأبد، ولكن لم يحدث أن فشلتُ في العودة لذا لا أعرف حقيقة ما سيحدث في الواقع.

- أمر فظيع!

أجاب رينتارو بوجه مذهول تقريبًا، ثم وقف أمام شجرة البوابة العملاقة ونظر إليها عاليًا.

- إذًا، ماذا يجب أن أفعل؟

- تتحدث مع صاحب هذا القصر.

- ثم؟

- ينتهي الأمر إذا اقتنع الخصم نتيجة الحوار بينكما.

- هذا فقط؟

باعد رينتارو ما بين حاجبيه في اندهاش، وواصل القط كلامه بنبرة ثقلية ومزعجة.

- ثمة مهمة أخرى... اضغط على الجرس.

فعل رينتارو ما قيل له.

*

على الجانب الآخر من البوابة استقبلتهما امرأة جميلة ترتدي كيمونو أرزق اللون بسيط الشكل، يدل سلوكها على أنها بلغت مبلغًا كبيرًا من العمر، ولكن من الصعب تحديد عمرها الحقيقي، كان يحيط بها جو بارد، وكانت عيناها تنظران إلى الأرض، فلا يمكن معرفة مشاعرها، غير أن زينة شعرها المبهرجة وبياض بشرتها التي تشبه الخزف يجعلانها مثل دمية يابانية تقليدية متقنة الصنع.

رينتارو الحائر جدًّا، كما لو أنه منذ البداية ضُرب على أنفه وجرد من الحماسة.

- ماذا تريد؟

تردد صدى صوت المرأة الرتيب.

فأجاب القط بدل الغلام المرتبك:

- نريد لقاء السيد زوجك.

وجّهت المرأة عينين لا روحَ فيهما إلى القط العتابي عند قدميها.

شعر رينتارو بالرعب، ولكن المرأة أجابت القط كأن شيئًا لم يحدث.

- زوجي في منتهى الانشغال... والضيوف الذين يأتون فجأة...

قاطعها القط بلا تردد ولا رهبة:

- نرجو منك إبلاغه أننا نريده في أمر مهم جدًّا، بل عاجل أيضًا.

- يأتي إلى زوجي كل يوم كثير من الضيوف الذين لديهم أمر عاجل وفي منتهى الأهمية، إنه في منتهى الانشغال: راديو، وتلفزيون، ومحاضرات، منشغل جدًّا، فحياته لا تُمكّنه من استقبال زوار مفاجئين. أرجو منكما العودة في وقت آخر.

- ليس لدينا وقتٌ لذلك.

أوقف صوت القط المفعمُ بحيوية متميزة حركة المرأة.

- لابد أن السيد زوجك سيغير موقفه إذا أخبرته أن هذا الشاب أتاه بحديث مهم جدًا عن الكتب.

صمتت المرأة إزاء موقف القط الضاغط، وأخيرًا، قالت أرجو الانتظار قليلًا، ثم انحنت واختفت في أعماق القصر.

نظر رينتارو إلى القط بوجه مذهول.

- من هذا الذي «أتى بحديث مهم جدًا»؟

- لا تلتفت إلى دقائق الأمور. المهم هو مواجهة الادّعاء

بادّعاء مماثل، أما محتوى الحديث، فلا مانع من التفكير فيه بعد دخول القصر.

- أنت حقًّا...

تردد رينتارو في الكلام هنيهة، ثم أردف:

- ... مُطمئِن.

أخيرًا ظهرت المرأة مجددًا، وانحنت لهما.

ثم تردد في مدخل القصر صدى صوتها الرتيب، تفضلا بالدخول.

*

كان القصر من الداخل عظيمًا لم يرَ رينتارو شبيهًا له من قبل.

مشيا فوق أرضية مبلطة بأحجار أنيقة، ثم فُتح باب المدخل الأمامي، فخلعا حذائيهما هناك، ثم صعدا عبر ممر مصنوع من الخشب الأبيض المصقول، يؤدي إلى شرفة تحيط بالمنزل تؤدي بدورها إلى جسر يقودهما إلى مبنى مجاور.

من الجسر شاهدا حديقة واسعة على طراز ياباني شامل، حيث يُغرد الوقواق بين الأشجار، وتتفتح أزهار الأزالية المشذبة، هنا حتى فصول السنة مزيفة.

- ألم تقل: إن البوابة ليست أكثر من مظهر خداع، وإن البيت الحقيقي متواضع؟

- مجاز فقط. لا تهدر الوقت فيما لا يفيد.

في أثناء تهامس رينتارو والقط، لم تتدخل المرأة التي تدلهما على الطَّريق بكلمة واحدة.

بدأ المشهد يتغير بالتدريج في أثناء سيرهما خلفها، فأخذ القصر الياباني الصرف يُظهر جانبًا عجيبًا.

فجأة تحول الجسر الخشبي إلى درجات سلم من الرخام، وبدت للعيان حديقة رحبة من فوق درابزين مزخرف على الطراز الصيني، يطل على نافورة فاخرة عليها تمثال امرأة عارية. وثمة قاعة متألقة بأنوار ثريا خلف حاجز رُسمت عليه غابات من الخيزران، ووضعت قنينة من الخزف زُيّنت بألوان متنوعة وزاهية، فوق طاولة مزخرفة للشاى.

- بدأت أشعر بالصداع.

- الشعور نفسه.

أبدى القط العتابي موافقة على رأيه للمرة الأولى.

- وكأنهم وضعوا أي شيء تصل إليه اليد من فنون العالم.

- يبدو المكان وكأنه يحتوي كل شيء، وفي الحقيقة لا شيء فيه.

أجاب القط بما يشبه حوار الطرشان.

- لا فلسفة، ولا فكر، ولا ذوق. مهما بدا غنيًّا من الخارج، فإنه يبدو غنيًّا وجميلًا، لكن إذا ما رُفع الغطاء عنه،

فهو ليس أكثر من خليط بضائع وأشياء مستعارة، لا مناص من القول: إنه فقر مهول.

- أعتقد أن الأمر لا يصل إلى هذه الفظاعة في الوصف.

- الحقيقة هي الحقيقة، بل هي حقيقة منتشرة وذائعة في العالم ونراها في الحياة كل يوم.

ـ هذا القصر... قاطعت المرأة التي تسير أمامهما كلام القط برفق..

- هذا القصر بهذه الحلة ليعكس خبرة زوجي الوفيرة ومعرفته العميقة. ربما يصعب عليكما فهمه.

ظن رينتارو للحظة أنها تمزح، ولكنه لم يستطع رؤية ملامح وجهها، بيد أنه لم يشعر بذرة مزاح واحدة من نبرة الصوت على الأقل.

كلما تقدم الجمع من عمقٍ إلى أعمق، ازداد توتر الجو المحيط بهم بشكل غريب.

لم تكن المسافة التي قطعوها عادية مطلقًا، ممر، ثم سلالم، ثم ممر للعبور بين مبنيين، وفي أثناء ذلك كانوا يشاهدون عدة من الزينة جُمعت بطريقة لا يمكن فهمها: منحوتات من العاج، ولوحات مائية بالفحم، وتماثيل النصف الأعلى لڤينوس، وسيوف يابانية تقليدية... إلخ. يتغير اتجاه السير بغير انتظام داخل فوضى والتباس، حيث لا يعود المرء يدري موضعه مطلقًا.

في منتصف الطَّريق التفتت المرأة إلى الخلف أكثر من مرة وهي تقول: «هل أنتما بخير؟»، ولكن رينتارو ورفيقه لم يكن لديهما الخيار.

- إذا قيل لي ارجع من حيث أتيت، لا أثق في قدرتي على الوصول إلى باب الخروجِ بسلام.

- لا تقلق أيها الوريث! قال القط العتابي وقد رفع عينيه قليلًا إلى رينتارو، فأنا الآخر غير واثق من قدرتي على العودة.

القط كالمعتاد يقول كلامًا ساذجًا لا يخفف الحقيقية.

أخيرًا جاءت نهاية الرحلة الطويلة.

تقدمت المرأة في ممر فُرِش بسجادة حمراء، ثم توقفت أمام حاجز رئيس في نهاية الممر رُسمت عليه لوحة شطرنج.

- أشكر لكما هذا العناء.

قالت لهما، ثم وضعت يدها بهدوء على المقبض. وما إنا وضعتها حتى فُتح الحاجز برشاقة. بلا وعي فتح رينتارو عينيه على وسعهما عندما رأى المنظر خلف الحاجز.

كانت هناك قاعة عملاقة جدرانها وأرضيتها وسقفها باللون الأبيض فقط.

والمساحة غير طبيعية في اتساعها، ناهيك عن توزيع الألوان الذي يُفقد الإنسان قدرته على تحديد الأبعاد. ارتفاع السقف يذكّر بصالة الألعاب الرياضية في المدارس، وباستثناء

الجدار الذي خلفهم، لا يمكن رؤية نهاية الجهات الثلاثة الأخرى. لذا من الصعب تمامًا تخيل مدى اتساع القاعة.

ملأت هذا الفراغ العملاق الذي صُبغ بالبياض الناصع، واجهاتُ عرض بيضاء موزعة بنظام صارم. يفوق ارتفاع الواجهة المغطاة بالزجاج طول قامة رينتارو، وتصطف متجاورة على مدى عشرات الصفوف، حتى الصف الذي أمام عينيه لا يمكن رؤية نهايته في العمق، ولكن أكثر ما أدهش رينتارو هو أنه مع طول تلك الواجهات المهول كان كل ما فيها كتبًا لا غير.

قُسمت الواجهات إلى رفوف عديدة، ثم مُلئت إلى آخرها بكتب وُضعت على جنبها، ويتتابع ذلك على امتداد البصر بلانهاية. ليس من المؤكد أنه مخزن عملاق خُزّنت فيه الكتب إلى ما لا نهاية، ولكن في نطاق ما أتاحت له عيناه أن يرى، فلا شك أن ثمة عددًا من الكتب يتخطى المعقول.

صُعق رينتارو تمامًا، فهمس وهو يسير محاذاة رفوف الكتب:

- مذهل...

تمتعت الكتب المرصوصة بالوفرة والتعدد في أنواعها وأزمان صدورها.

تملأ تلك القاعةَ العملاقة كتبٌ بكميات وجودة مهولة في مختلف المجالات: آداب، وفنون، وفلسفة، وشعر، ورسائل، ويوميات.

علاوة على ذلك، الكتب جميعها نظيفة وجميلة بلا خدش واحد أو تجعيد، مما يجعلك تظن أنها كلها جديدة لم تُمس.

ليس هناك وصف إلا أنها عظيمة.

- لم أرَ من قبل مختارات كتب بهذه الروعة...

- شرف لي هذا المديح.

سُمع ذلك الصوت الحاد من الجهة الأخرى لرفوف الكتب.

عاد رينتارو إلى المدخل، فأرشده الصوت: «هنا»، سار وهو يختلس النظر بين كل رف ورف، وعندما وصل في العد إلى بضعة عشر رفًّا، عثر على رجل طويل القامة يجلس على كرسي أبيض.

رجل أنيق وطويل يرتدي بدلة بيضاء ناصعة بنفس درجة بياض الأرضية المصقولة، يجلس على كرسي دوّار صغير، وينظر إلى كتاب ضخم فوق ركبتيه اللتين وضع إحداهما فوق الأخرى، كانت الرفوف بداية من المكان الذي يجلس فيه الرجل فارغة لمَّا تمتلئ بالكتب بعد، بمعنى أن هذا المكان على الأرجح هو أعمق مكان في مخزن الكتب العملاق هذا.

- مرحبًا بك في مكتبتي.

حرك الرجل رأسه قليلًا وهو ينظر إلى رينتارو.

له ابتسامة وديعة ونظرات حادة تناقضها، ما ينم عن شخصية مصقولة السُّلوك والحركات ومعقدة.

تذكر رينتارو ما قالته المرأة سالفة الذكر عن الراديو والتلفزيون. كان شخصًا يناسبه تمامًا العمل فيهما.

- من النظر فقط يبدو شخصًا ذكيًا.

همس رينتارو للقط بإحباط.

- ماذا نفعل إذا انهزمتَ منذ البداية؟ كن ثابتًا وقويًا... أرجوك.

أجاب القط معترضًا.

نظر الرجل نظرات حادة وسريعة إلى كل من رينتارو والقط على التوالي، ثم قال:

- أنت من يزعم أنه جاء بحديثٍ في منتهى الأهمية؟

- وإذًا...

في اللحظة التي أجاب فيها رينتارو بذلك الجواب الساذج لمع بوضوح شعاعٌ بارد في عيني الرجل.

- آسف، ولكنني رجل مشغول، وليس لديَّ متسع من الوقت لحوار ممتع مع شاب جاء لزيارتي فجأة، ثم يقف هكذا شاردًا دونما تقديم لنفسه أو حتى إلقاء التحية.

- آسف... اسمي رينتارو ناتسوكي.

أصلح رينتارو وقفته على عجل، ثم انحنى "معذرة على سوء التصرف".

- نعم، نعم...

أجاب الرجل بإيجاز، ثم ضيّق عينيه الحادتين، وقال:

- أخبرني إذًا بذلك الحديث المهم، فأنا أهتم بكل ما يتعلق بالكتب.

مع دخول الرجل في صلب الموضوع فجأة، لم يكن لدى رينتارو إجابة. فمنذ البداية ليس لديه حديث مهم ولا غيره، وعندما نظر بارتباك إلى القط وجده يهز شاربيه الأبيضين ببطء.

- لقد جئنا لكي نطلب منك إطلاق سراح الكتب.

ضيق الرجل عينيه الضيقتين أكثر، ثم أنزلهما لينظر إلى القط.

في أعماق عينيه قوة ترهيب لا تتهاون.

- كما قلتُ منذ قليل: أنا رجل مشغول، فلديَّ الكثير مما يجب أن أفعله: لقاءات في التلفزيون والراديو فضلًا عن محاضرات عامة، ثم الكتابة، ووسط ذلك الانشغال الشديد أقتنص وقتًا لأقرأ كتبًا مختلفة من هذا العالم، آسف ليس لدي وقتٌ للحوار حول هذا السخف.

تنهّد الرجل بعمق، ونظر إلى ساعة يده كأنه يقول: انظروا!

- لقد أهدرتُ دقيقتين ثمينتين بالفعل، إذا انتهى ما لديكما أطلب منكما الرحيل.

- لم ينته أي شيء...

- لقد سبق لي القول.

بعينين ممتلئتين نفورًا حدّق الرجل إلى القط العتابي الذي لم يستسلم.

- ارحلا بسلام... فأنا مشغول جدًّا، ولم أقرأ إلا خمسة وستين كتابًا فقط من المائة التي أكلّف نفسي بها.

رفع رينتارو صوته دونما وعي.

- مائة كتاب؟ هل تقرأ مائة كتاب في العام؟

- في الشهر وليس في العام.

أكمل الرجل وهو يتصفح الكتاب الذي على ركبتيه بحركات مبالغ فيها:

- ولذا أنا مشغول جدًا، وافقتُ على المقابلة متوقعًا أنني سأسمع حديثًا مفيدًا، ولكنني أخطأت، إذا كنتما ستزعجانني أكثر من ذلك، فسأطردكما بكل ما لديَّ من قوة، لا أدري أصلًا هل سيمكنكما بعدها الوصول إلى باب الخروج أم لا؟ ولكن لا شأن لي بذلك.

كانت لآخر كلمة قسوة تجعل البرودة تتغلغل في عظام الظهر.

وسط الصمت المفاجئ الذي سيطر على المكان، تردد فقط حفيف صفحات الكتاب الذي يقلّبه الرجل. نظر إليه القط العتابي بعيون شرسة، غير أن الطرف الآخر لم يكن شخصًا يخاف تلك النظرات.

تابع الرجل القراءة كأنه قد نسي وجود الزوار، كان رينتارو

وسط هذا الجو البارد الميؤوس منه، يفتش بلا وعي في تلك الكتب.

كانت الكتب المرصوصة متعددة الأنواع والأشكال، ولكن إذا غيرنا الوصف، فلا بأس من القول: إنها جُمعت بعشوائية شديدة. ليست فقط الكتب العادية، بل حتى: المجلات، والخرائط، والمعاجم مرصوصة دونما أي اعتبار لترتيب أو لمجال.

في مكتبة ناتسوكي كتب غير عادية، ولكن يُحس منها إلى حدٍّ ما بفلسفة جده، ومقابل ذلك، تبدو رفوف الكتب التي أمام عينيه قد جمعت من كل شيء، ولكن لا يمكن التعرف عليها بسبب الفوضى.

عندما قلّب الرجل صفحات الكتاب تحدث رينتارو برفق.

- هل قرأت أعمال نيتشه كلها؟

كان رينتارو ينظر إلى رف الكتب الذي خلفه مباشرة، فقد رُصّت أعمال نيتشه الشهيرة بداية من أهمها: «هكذا تكلم زرادشت» إلى مجموعة الرسائل داخل الواجهة الزجاجية.

- "أنا أيضًا أحب نيتشه"، أجاب الرجل دون أن يرفع عينيه عن الكتاب، ثم تابع: "من يقولون: إنهم يحبون نيتشه في هذا العالم كثيرون، ولكن الذين يقولون ذلك وقد قرأوا أعماله حقًا هم قليلون جدًّا. يقرأون فقط ملخصات لا تذكر إلا بضع الأقوال المأثورة التي نُزع منها الجوهر، ثم يتظاهرون

بمعرفة نيتشه كأنهم يرتدون معطفًا على أحدث واردات الموضة، هل أنت كذلك من هذا النوع؟"

- «العلماء الذين يتصفحون الكتب تصفحًا يفقدون في النهاية القدرة على التفكير، وعندما يتوقفون عن تصفح الكتب لا يفكرون».

عند كلمات رينتارو هذه رفع الرجل عينيه عن الكتاب ببطء. فواصل رينتارو الكلام مرتبكًا:

- نيتشه إنسان كريه حقًا، وهذا سبب حبي له.

أخذ الرجل، دون أن يحرك ساكنًا، يحدّق في هذا المُحاور الغامض غير الموثوق. يظهر في عينيه شعاع صُبغ بالاحتقار والبرود، ولكن عنده كذلك قليل من الاهتمام العميق. وأخيرًا، أغلقت يداه الكتاب الضخم الذي فوق ركبتيه.

- حسنًا، دعني أعطك قليلًا من الوقت.

شعر رينتارو أن الهواء البارد الذي يشبه الثلوج قد خفَّت وطأته قليلًا.

وجه القط عينيه إلى رينتارو بقليل من الدهشة، ولكن رينتارو لم يكن لديه متسع للاستجابة.

غيّر الرجل جلسته، فجعل رينتارو يشعر فجأة بمزيد من قوة الضغط الثقيلة والمؤلمة عليه، فرفع صوته في محاولة لطرد رغبة في الهروب التي اعترته:

- لقد جئتُ إلى هنا بعد أن سمعت أنك تسجن كثيرًا من الكتب.

- ينبغي عدم الحكم على الأمور بالسماع فقط، وعليك أن تتأكد بعينيك. إنني أقرأ الكتب وأحتفظ بما قرأته منها باهتمام بالغ.

- ما قرأته؟ هل قرأت الكتب التي هنا كلها؟

- بلا جدال.

مد الرجل ذراعه مشيرًا إلى المساحة كلها التي تشبه القاعة وكأنه يقول: انظر!

- بداية من رف المدخل حيث دخلتَ وحتى هذا الرف، قرأت من الكتب حتى اليوم خمسًا وسبعين ألف وستمائة واثنين وعشرين.

- خمسة وسبعين ألف...

وقف رينتارو مذهولًا، فظهرت على وجه الرجل ابتسامة خافتة.

- لا داعي للدهشة، ثمة ضرورة لمثقف يقود العصر مثلي أن يستمر دائمًا في قراءة كميات كثيرة من الكتب، لزيادة معلوماته وفلسفته. وبقول آخر، هذه الكتب هي التي تدعم ما أنا عليه الآن، فالكتاب خير رفيق لي، ولذلك أنا منزعج جدًّا من ادعائك الذي لا يُفهم.

ثم وضع ببطء ساقه الطويلة فوق الأخرى، وحدق إلى

رينتارو بعجرفة. تحولت ثقته واعتداده بنفسه إلى قوة صمت ضاغطة تندفع مثل الرياح العاتية.

وبالرغم من ذلك ما ساعد رينتارو في الثبات هي حيرةٌ صافيةٌ طغت على شعوره بالقهر والاختناق.

- ولكن أن تجعل الكتب سجينة هكذا...

أُغلقت أبواب رفوف الكتب الزجاجية بصرامة وبلغ به الحرص أن يُدلي أقفالًا من المقابض أيضًا.

رينتارو لا يفهم المعنى الصحيح لما قاله القط عن «الكتب السجينة»، لكن على الأقل هذه ليست الطَّريقة العادية لتخزين الكتب، جميلة ولكنها تبعث على الاختناق، ربما هذا هو ما عناه.

- إنه أمر غير طبيعي.

عبس الرجل وقطب حاجبيه.

- هذه الكتب في منتهى الأهمية بالنسبة لي، ومن الأفضل القول: إنني أعشق الكتب، هل من غير الطبيعي أن أغلق على هذه الكنوز بأقفال؟

- ولكن بهذه الطَّريقة تكون أعمالًا فنية وليست كتبًا. أن تضع عليها أقفالًا ضخمة مما يصعب عليك أنت نفسك أن تتناولها بيدك بالرغم من أنها كتبك.

- أأتناولها بيدي؟ لماذا؟ إنها كتب انتهيت من قراءتها بالفعل!

احتار رينتارو إزاء الرجل العبوس.

- لا ينتهي الأمر بمجرد قراءتها مرة واحدة، فربما تحتاج أن تعيد قراءتها.

- أعيد قراءتها؟ هل أنت أبله؟

تردد صدى تلك الكلمة في المكان.

قال الرجل ذو البدلة البيضاء وهو يمد أصابعه الطويلة إلى الزجاج:

- ألم تسمع شيئًا مما قلت؟ إنني مشغول بقراءة كتب جديدة كل يوم. وأعاني كثيرًا من أجل تأمين الكمية المطلوبة شهريًا، لا وقت لدي أضيعه في قراءة الكتب التي سبق لي أن قرأتها مرة أخرى.

- لا تقرأ الكتاب مرتين.

- أمر بديهي.

حرك الرجل وجهه يمينًا وشمالًا وكأنه مذهول من أعماقه إزاء رينتارو الذي فقد النطق.

- لنقل: إن درجة غبائك هذه لا مفر منها؛ بسبب صغر سنك. وإلا كنتُ سأشعر بخيبة أمل من هذا الحوار الذي بلا معنى مدة ثلاث دقائق. هل تسمع؟! في هذا العالم كتب بأعداد هائلة. صدرت في الماضي أعمال لا يمكن حتى حصرها، وما زالت الكتب مستمرة في الصدور حتى الآن. ومن المستحيل أن أجد وقتًا لقراءة كتاب واحد مرات عدة.

ترددت في القاعة الواسعة أصداء الكلمات التي تتواصل بلا انقطاع. شعر رينتارو كأنه في حالة طفوٍّ منفرة تشبه الدوار.

- في هذا العالم كثيرون ممن يُطلق عليهم: "قراء"، ولكن مَن في وضعي نفسه مطالب بقراءة كتب أكثر من أي شخص. من يقرأ عشرين ألف كتاب، فقيمته أعلى ممن يقرأ عشرة آلاف كتاب. فإعادة قراءة كتاب واحد مرات ومرات مع وجود جبال من الكتب يجب قراءتها، ليس إلا مضيعة للوقت بلا جدوى.

شعاع يتقد ذكاءً كحد السيف طار من عيني الرجل الذي ضيّقهما وهو يقول: «هل تفهم؟». شعاعُ ثقةٍ طاغيةٍ بالنفس يشبه الجنون تقريبًا.

تبادل رينتارو النظرات معه في صمت.

لم يفقد النطق بسبب الرهبة والخوف، بل بسبب دهشة خالصة.

لم يكن ما يقوله الرجل ضد المنطق.

فمهما بدت القطع الحجرية مشوهة، إلا أنها رُصّت لتصنع جدارًا كبيرًا بلا ثغرات. تصدر عن الرجل كلمات ثابتة لا تغيير فيها؛ لأنه يفخر بمنطقه الراسخ على وجه الخصوص.

«للكتب قوة»

كانت تلك الكلمة على لسان جده دائمًا، وهذا الرجل الذي أمام عينيه يقول: إن الكتب هي التي تسنده، يُفهم كلامه بالمعنى نفسه الذي يشير إلى أن للكتب قوة كبيرة.

يضع رينتارو يده اليمنى على إطار نظارته.

الأمر مختلف، كلمات الرجل مشوهة بشكلٍ ما.

لو كان جده مازال حيًّا لأجاب على السُّؤال بصوت مستقر وثابت:

- أنا مشغول جدًا.

تحدث الرجل مجددًا، وفي الوقت ذاته أدار الكرسي ببطء ليجعل وجهته ناحية رفوف الكتب، ثم مد يده اليمنى، وأشار إلى باب الخروج، وفتح الكتاب الذي فوق ركبتيه مرة أخرى.

- أرجو منكما الرحيل!

ليس لدى رينتارو كلمات يجيب بها.

وصمت القط أيضًا صمتًا ثقيلًا وقاسيًا.

بدأ الرجل في تقليب صفحات الكتاب كأنه فقد اهتمامه بهما تمامًا.

يُسمع صدى صوت تقليب الصفحات الجاف وسط القاعة العملاقة، وفجأة صدر صوت جاف عندما رفع الستار الأبيض الذي يحجب باب الخروج. لا مرشد على الجانب الآخر من الباب كما كان الحال وقت المجيء. ظلام أسود حالك يملأ ذلك الجانب. ارتعش جسم رينتارو قليلًا لدى إحساسه برياح باردة مرعبة.

- أيها الوريث! عليك التفكير.

صاح القط فجأة:

- الحقيقة هي سر قوة كلماته.

- الحقيقة؟

- أجل... فأكبر قوة في هذه المتاهة هي الحقيقة، ومهما كانت مشوهة من الصعب أن تنهار إذا أضيف إليها الإصرار، ولكن ليس كلها حقائق.

خطا القط خطوة إلى الأمام ببطء.

- من المؤكد وجود نقطة ضعف. هذا الرجل يوالف ما بين الكلمات ببراعة ولكنها ليست كلها حقائق. من المؤكد وجود كذب في مكانٍ ما.

- كذب...؟

فجأة هبت رياح خفيفة، فالتفت رينتارو إلى المدخل.

تهب الرياح من الظلام الحالك القابع في الجانب الآخر من المدخل. كلا بل الرياح تهب في اتجاه الظلام. تتحرك الرياح ببطء محاولة امتصاص رينتارو ورفيقه، ثم أصبحت لها قوة اندفاع تدريجية، ولكن مؤكدة. الرياح تندفع في اتجاه زوبعة من العدم لا يُعرف أصلها. تدفق شيء بارد كالثلج في ظهر رينتارو.

عندما أعاد رينتارو عينيه إلى ما كانا عليه، وجد الرجل غارقًا في قراءة الكتاب كأن شيئًا لم يحدث. تُرى هل أوشك أن ينتهي من القراءة؟ الكتاب الضخم في صفحاته الأخيرة. وإذا

انتهى من قراءته، فسيضعه داخل الواجهة الزجاجية البراقة بصفته كتابًا جديدًا يُزيّن مخزن الكتب الفوضوي هذا، ويضع على الباب قفلًا، فلا تطاله يد مرة ثانية.

الأمر واضح، هذه الكتب سجينة حقًّا في هذا المكان.

قال القط شيئًا وسط الرياح التي بدأ زئيرها يرتفع، ولكن رينتارو لم يجب. فقط تابع التحديق إلى تلك الكتب ذات العدد المهول التي تغطي الآفاق.

وأخيرًا:

- من المؤكد أن هذا كذب.

صوت صغير خافت، استجاب له الرجل بهزة من كتفيه.

- أنت تكذب بالتأكيد.

قالها من جديد، ولكن بوضوح هذه المرة، فأدار الرجل رأسه ببطء لينظر إلى رينتارو. نظرات حادة كأنها تطعنه، ولكن رينتارو لم يهتز له رمش.

- أنت تكذب. قلت: إنك تحب الكتب، ولكنها ليست الحقيقة.

- ما تقوله ممتع.

كان رد فعل الرجل سريعًا سرعة غير طبيعية.

- أيها الشاب! ارحل سريعًا، وخذ معك هذا القط القبيح قبل أن تكتوي بنار غضبي.

- أنت لا تحب الكتب على الإطلاق.

أعاد رينتارو كلامه مرة أخرى.

نظر إليه رينتارو نظرات مستقيمة، وبدا الرجل كأنه اهتز قليلًا.

- ما دليلك...

- لمجرد النظر.

دوّى صوتُ رينتارو أقوى مما توقع، مما أدهش رينتارو نفسه، ولكنه واصل الكلام بتلقائية:

- من المؤكد أن في هذا المكان عددًا هائلًا من الكتب، وهي في مجالات متنوعة وهائلة، وبينها كتب قديمة ثمينة جدًا لا يمكن رؤيتها الآن إلا نادرًا، ولكن هذا كل شيء فقط.

- فقط؟

- هذه مثلًا، رومانسيات دارتانيان العشر.

أشار رينتارو إلى عشرة مجلدات بأغلفة رائعة مرصوصة بالترتيب في الرف الأيمن مباشرة. تتالى عناوينها المكتوبة بخط ذهبي فوق أرضية بيضاء لغلاف مشرق. يُحفظ ذلك العمل العملاق الذي كتبه ألكسندر توماس في الواجهة بهدوء شديد وجميل.

- من النادر الحصول على فرصة رؤية ذلك العمل مكتملًا هكذا، ولكن المجلدات العشرة جميعًا لا تظهر عليها آثار القراءة، فهي كتب ضخمة، ومهما حرصت في أثناء قراءتها،

فلا بد أن ينثني الورق هنا أو هناك. وبالرغم من ذلك، فهي سليمة ونظيفة كأنها وصلت الآن إلى هنا.

- بالنسبة لي الكتب كنوز ثمينة. ومن عادتي اليومية أن أقرأ كل كتاب وأفهمه، وأضع ما قرأته هنا باهتمام، وهذا متعة لي كذلك.

- إذا كان الأمر كذلك، فأين المجلد الحادي عشر؟

حرك الرجل حاجبيه دون وعي عندما سمع كلمات رينتارو.

- "سيرة دارتانيان" يفترض أن تكون كاملة أحد عشر مجلدًا. المجلد الأخير «وداعًا للسلاح» غير موجود.

صمت الرجل تمامًا، ولم يتحرك كأنه تمثال.

واصل رينتارو كلامه دون اعتبار، وأشار هذه المرة إلى يمينه.

- ورواية «جان كريستوف» لرومان رولان، تبدو وكأنها مكتملة الجزءين الأول والأخير، ولكنها في الحقيقة ثلاثة أجزاء، وينقصها الجزء الأوسط. وهذه رواية «سجلات نارنيا»، ينقصها جزء «الحصان وصبيُّه». فهذه الطَّريقة في التجميع لا تناسب قولك: إن الكتب كنوز ثمينة. يبدو الأمر من أول وهلة كأنك جمعت كل شيء، ولكن نظرة فاحصة تشير إلى أن هذه الرفوف فوضوية.

بعد أن تحدث رينتارو بطلاقة رفع عينيه ونظر إلى سقف القاعة العملاقة.

كانت شدة الرياح قد ضعفت على حين غرة.

- هذه ليست رفوفًا لوضع الكتب المهمة، بل مجرد واجهة عرض من أجل التفاخر بالكتب التي تقتنيها.

فكر رينتارو قليلًا، ثم حدّق إلى الرجل.

- مَن يحب الكتب لا يتعامل معها بهذه الطَّريقة.

قفز إلى ذاكرة رينتارو وجه جده وهو يقلب بهدوء صفحات الكتاب.

يعيد جده قراءة الكتب المهمة مرات ومرات حتى تبلى، فينغمس مسترخيًا داخل حكاياتها، ثم يبتسم في رضا.

كان جده يعامل كتب المكتبة باهتمام ورعاية، ولكن ليس بهدف الزينة، فلم يحرص على صنع مساحة جميلة وبراقة، بقدر حرصه على أن يمد المرء يده إليها فجأة ليقرأ كتبها، وذلك بأن يعتني بكل التفاصيل حتى لو بدت الكتب قديمة، ولهذا السبب بالذات استطاع رينتارو قراءة الكثير من الكتب.

وفي ظل حفاظه على الكتب بهذه الطَّريقة قال له الجد في أحد الأيام مقولة مؤثرة.

- لا مانع من قراءة الكثير من الكتب، ولكن يجب ألا تُسيئ الفهم.

ردًّا على ما قاله رينتارو فجأة، تحرك الرجل ذو البدلة البيضاء حركة طفيفة فقط، ولكنه لم يصدر صوتًا، فأكمل رينتارو الكلام وسط سكون متوتر وكأنه يتذكر تدريجيًّا:

- للكتب قوة هائلة، ولكنها في النهاية قوة الكتب نفسها وليست قوتك أنت شخصيًّا.

كان ذلك ما قاله الجد له منذ وقت طويل مضى.

كثر غياب رينتارو عن المدرسة، وأخذ يقلب رفوف المكتبة ويقرأ الكتب بلا هوادة. كان يشعر بكراهية المدرسة، فاعتزل داخل جدران الكتب، ثم بدأ تدريجيًّا يفقد اهتمامه في العالم الخارجي، ويغرق في عالم حروف الطباعة فقط. واصل الجد الصموت حديثه إلى حفيده في حالة نادرة.

«الاندفاع في قراءة الكتب فقط لا يجعلك ترى العالم أوسع. ما لم تفكر بنفسك وتسر على قدميك، ستكون المعرفة التي تخزنها داخلك كالعدم».

هزَّ الحفيد كتفيه لتلك الكلمات الصعبة، فنظر إليه الجد بعينين هادئتين وقال: «لن تعيش الكتبُ الحياة بدلًا منك. قارئ الكتب الذي ينسى السير على قدميه، يشبه موسوعة تضخمت بمعلومات قديمة. مجرد تحفة قديمة لا تفيد ولا تنفع في أي شيءٍ ما لم يفتحها شخص آخر».

مسح الجد على رأس حفيده برفق، ثم أضاف:

«هل تريد أن تكون موسوعة لاغير؟»

لا يتذكر رينتارو إجابته على سؤال جده الهادئ.

ولكن الحقيقة أنه عاد للذهاب إلى المدرسة مرة أخرى.

ثم كلما مال الحفيد من حين لآخر إلى الانعزال في عالم

الكتب يقول الجد له دائمًا وهو يشرب من كوب الشاي باسترخاء:

«القراءة شيء جيد، ولكن ينبغي أن تخرج وتسير على قدميك بعد القراءة».

يعتقد رينتارو الآن، وبعد فوات الأوان، أن تلك الكلمات كانت أقصى جهد يبذله الجد غير البارع في الحديث إلى حفيده.

- ومع ذلك فقد...

تحدث الرجل ذو البدلة البيضاء فجأة:

- بنيتُ مكانتي الحالية بقراءة كتب لا حصر لها. كلما قرأتَ أكثر، تزداد قوة. لقد وصلت إلى ما أنا عليه الآن بفضل تلك القوة.

- ولذلك تسجنها وتفتخر بها كأن قوتها هي قوتك الذاتية، أليس كذلك؟

- ماذا تقول؟

- ألم تجهز واجهات العرض المبالغ فيها هذه خصيصًا لكي يعرف المحيطون بك أنك قرأت هذا الكم الكثير من الكتب، وتقول: إنني عظيم؟

- اخرس!

لم يعد الرجل متعجرفًا يضع ساقًا فوق أخرى، بل لم يعد

ينظر إلى الكتاب المفتوح فوق ركبتيه، وظل يحدّق إلى رينتارو بنظرات حادة.

- ما الذي يفهمه فتى صغير مثلك؟

وفجأة لمعت حبات عرق صغيرة على جبين الرجل.

- في هذا العالم، مَن قرأ عشرة كتب، ينال احترام النَّاس أكثر ممن قرأ كتابًا واحدًا عشر مرات. قراءة كتب كثيرة أمر مهم في المجتمع، هذه حقيقة. أليست قراءة الكتب هي التي تسحر النَّاس وتجذبهم؟ هل هذا خطأ؟

- أنا لا أغرف إن كان خطأ أو لا؟ فليس هذا ما أتحدث عنه.

- ماذا؟

بدت المفاجأة على ملامح الرجل.

- أنا لا أتحدث عما يطلبه المجتمع ولا عمن ينال الاحترام.

- عما تتحدث إذًا؟

- أقول: إنك تحب نفسك فقط وليست الكتب، وقد قلت لك منذ قليل: إن من يحب الكتب لا يعاملها بهذه الطَّريقة.

مرة أخرى يخيم السكون على المكان.

جلس الرجل مذهولًا بلا صوت ويداه فوق الكتاب الذي فوق ركبتيه. وبدا المتعجرف الذي هو أصغر الآن مما كان عليه.

وفجأة تهدأ الرياح التي كانت تهب هبوبًا خافتًا، ثم توقفت تمامًا. عندما التفت رينتارو إلى الخلف وجد ساتر المدخل المفتوح قد أُغلق.

- أنتَ...

تحدث الرجل بعد صمت طويل، وبدأ يقول شيئًا، ولكنه سكت فورًا، ثم بعد فترة صمت إضافية بدأ يتحدث بشكل عنيف كأنه عثر على الكلمات التي كان يجب عليه قولها.

- وأنت هل تحب الكتب؟

ما أربك رينتارو لم يكن السُّؤال المفاجئ، بل الشعاع الصادق الذي رآه في أعماق عيني الرجل ذي البدلة البيضاء. شعاع بعيد مملوء بالقلق والوحدة والعدم، ويختلف عن موقف البرود والقمع الذي كان عليه قبل قليل.

- ومع ذلك هل أنت تحب الكتب؟

كان في عبارة «ومع ذلك» القصيرة كثير من المشاعر، أجاب رينتارو بوضوح؛ لأنه فهم هذه المشاعر بالذات:

- نعم أحبها.

- وأنا أيضًا.

هدأ صوت الرجل فجأة، وتلاشت منه أصداء البرودة، وشعر في مكانٍ ما بالنُّبل.

بدأ رينتارو المرتبك يسمع بشكل مفاجئ حفيف رياح جافة تهب أمام عينيه.

نظر حوله، فوجد القاعة العملاقة في طور التغيير.

أخذت واجهات العرض العملاقة بصفوفها المهيبة تنهار من أركانها كأنها قلاع رمال تذروها الرياح، وفي الوقت ذاته طارت الكتب التي بداخلها عاليًا كأنها طيور ترفرف بأجنحتها.

- وأنا أيضًا أحب الكتب.

أغلق الرجل ذو البدلة البيضاء الكتاب المفتوح فوق ركبتيه برفق، ثم تأبطه ونهض واقفًا. وما إن قام بتلك الحركة، حتى هبت الرياح على الرف الذي أمامه، فانهار، ثم تلاشى، وطارت كتب لا حصر لها مرفرفة بأجنحتها كسرب عملاق من الطيور المهاجرة. كان مدى النظر في الجهات الأربع جميعًا على وشك الامتلاء بالكتب الطائرة.

أدار الرجل بصره الهادئ إلى رينتارو الواقف مذهولًا.

- فتى عديم الرحمة!

- أنا في الواقع...

رفع الآخر يده اليمنى برفق ومنعه مواصلة الكلام، ثم التفت جواره بابتسامة مريرة وخافتة.

- يا له من ضيف مزعج هذا الذي أدخلتِه إليَّ!

وعندما التفت رينتارو بشكل مفاجئ وجد المرأة ذات الكيمون، المرأة التي أرشدتهما في البداية تقف في الجوار. آنذاك، كان وجهها بلا مشاعر وكأنه قناع ممثل في مسرح النو، ولكنه الآن مشغولٌ بابتسامة خجولة.

- لا تقلق على طريق الرجوع، ستستطيع العودة دونما دليل.

تردد صدى الصوت وسط أصوات رفرفة الكتب.

كثير من رفوف الكتب، تلاشى فعلًا مع الرياح، وامتلأ المكان بأضواء خافتة، ثم غمرتِ الكتبُ المرفرفة كطيور مهاجرة، الجهات الأربع بلون ناصع البياض.

نظر الرجل إلى ساعة يده.

- لقد استهلكتُ كثيرًا من الوقت، ولكنه كان ثمينًا بما لا يقارن مع أي وقت مضى. أعرب لك عن شكري.

ثم ابتسم وأخذ قبعته البيضاء التي ناولته إياها المرأة، ودّع الفتى وهو يعتمر القبعة مديرًا له الظهر بشكل بطيء.

انحنت المرأة لـ رينتارو، وفي اللحظة نفسها تحول المكان إلى شعاع باهر وشديد البياض.

*

في السابعة من صباح اليوم التالي، أنهى رينتارو وجبة الإفطار في مطبخ البيت، ثم وقف أمام المكتبة وفتح الباب.

أشعل المصابيح وأزاح الستائر التي كانت متدلية على النافذة تاركًا الهواء يلج المكان، دخل هواء الشتاء النقي ليطرد الهواء الراكد في الداخل ويجلب الانتعاش. كنس رينتارو درجات السلم الحجرية أمام المحل بشكل خفيف، ثم عاد إلى المكتبة وأمسك بالمنفضة لينفض الغبار عن الرفوف.

كان يقلّد في هذا كله ما كان يفعله الجد.

كان يرى جده يفعل ذلك كل يوم وقت ذهابه إلى المدرسة، ولكنه اليوم أول مرة يقوم بذلك هو بنفسه. رينتارو وبالرغم من كثرة تناوله لكتب المكتبة إلا أنه لم يسبق له أن نظف المكتبة قط.

تردد داخله صوت عجيب، ما هذا الذي تفعله؟ وتردد صوت ضحك آخر، حسنًا دعه يفعل، كلاهما صوتا رينتارو شخصيًا. وفي الواقع هو نفسه لا يفهم ما الذي يفعله. لا يفهم، وتنهّد، فانطلق زفير أبيض تحت أشعة شمس الصباح الصافية.

أخذ رينتارو يفكر بكآبة وهو ينظر إلى رفوف الكتب: تُرى ما الذي جعله يبدأ التنظيف؟ يفكر بلا توقف وأحداث الأمس العجيبة تتأرجح جيئة وذهابًا في لا وعيه.

- عمل عظيم أيها الوريث!

بصوت غليظ وفي أثناء سيرهما في ممر رفوف الكتب الطويل، قال له القط العتابي صاحب الفرو الناعم.

ظهرت ملامح غريبة على وجه رينتارو لمنظر القط المبتسم وهو يضيّق عينيه الخضراوين:

- ماذا حدث؟

- لستُ معتادًا على المديح، قال رينتارو:

- التواضع ميزة حسنة، ولكن كل شيء يزيد عن حدّه ينقلب عيبًا.

أجاب القط بشكل غريب.

ثم واصل كلامه وهو يتقدم بخطواتٍ صامتةٍ إلى الأمام:

- حرّكت كلماتك الرّجل، فأطلق سراح الكثير من الكتب، واستطعنا الرجوع. مما لا شك فيه أنه لولا كلماتك، لما استطعنا ذلك، وبقينا تائهين داخل القصر العجيب.

هذا القط يقول كلامًا عجيبًا بنبرةٍ عادية جدًّا، وعندما التفت إليه ابتسمت عيناه الخضراوان ابتسامة خافتة.

- كان عملًا رائعًا. على أي حال تخطينا المتاهة الأولى بسلام.

- شكرًا... شكرًا

شرع رينتارو بالكلام، ثم تأخر خطوة ونظر إلى الخلف نحو القط:

- المتاهة الأولى؟

- لا، لا... لا شيء، لا تهتم.

عندما جاءه هذا الرد كان يقف وسط المكتبة، تخطى القطُّ برشاقة أقدامَ رينتارو، وذهب عائدًا إلى الحائط في العمق.

- انتظر لحظة، تقول: لا تقلق، وأنتَ...

- ألم أقل لك: أنا تورا القط العتابي؟ احفظ اسمي.

التفت القط إلى الخلف ضاحكًا باستمتاع.

- قمتَ بعمل عظيم على غير المتوقع.

- لا تحاول الخداع بهذا الكلمات...

وآنَ هذا الرد تحول الممر نفسه إلى شعاع أبيض. حين انتبه رينتارو وجد نفسه يقف وحيدًا أمام الجدار الخشبي الكئيب.

لقد مضى على ذلك يوم واحد، ولكنه مازال كالحلم.

- أحقًا كان عملًا عظيمًا؟

ما زال صوت القط العتابي المبحوح راسيًا في أعماق أذنيه حتى الآن.

لم يسبق له أن سمع كلمات مديح مباشرة بهذه الصراحة، كان معتادًا على سخرية النَّاس منه وأنه بلا عزيمة، واعتاد أن يجتنبوه؛ لأنه كئيب، ولكن حين قيلت له هذه الكلمات بشكل مباشر أحسّ بتوتر غريب. وبسبب هذا التوتر، نهض وقرر أن ينفض الغبار عن كتب المكتبة المظلمة.

عندما انتهى من تنظيف المكتبة، تردد رنين جرس الباب فجأة، فالتفت جهته. فإذا بها سايو يوزوكي مسؤولة الفصل التي سلمته أمس مذكرة التواصل، كانت تنظر داخل المكتبة باستحياء.

مكث واقفًا ينظر إليها مندهشًا، فقطبت الطالبة حاجبيها الجميلين وهي تلتحف بشال أحمر.

- ماذا تفعل؟

- ماذا... ماذا؟

حارَ كيف يرد، ولكنه حين فكر مليًّا وجد أن هذا السُّؤال هو الذي كان يطرحه وليس العكس.

- وأنتِ يا يوزوكي، ماذا تفعلين هنا منذ الصباح؟

- أنا في طريقي إلى تمرين فرقة الموسيقى الصباحي كالعادة.

ثم رفعت يدها اليسرى لتُريه حقيبة آلة موسيقية سوداء.

- رأيتُ المكتبة، التي يُفترض أنها مغلقة، مفتوحة، فاندهشت، وقررت استطلاع الأمر.

تحدثت سايو وهي تضع يديها على خصرها والبخار الأبيض الناصع يتصاعد من فمها بعد أن تخطت عتبة المكتبة برشاقة.

- إذا كان لديك وقت لتنظيف المكتبة منذ الصباح الباكر، فهذا يعني أنك ستأتي إلى المدرسة اليوم بشكل خاص، أليس كذلك؟

- كلا، ولكن...

- لا تقل: كلا، ولكن... تعال إلى المدرسة بما أن لديك الوقت، فالتغيب عن المدرسة؛ لأنك ستغير السكن، سلوكٌ سيئ جدًّا.

- معك حق... ولكن...

وجهت سايو نظرات نارية إلى رينتارو الذي بقي عاجزًا عن التعبير بوضوح حتى النهاية.

- اسمع! أرجو أن تفكر في مشاعري وأنا مُجبرة على إيصال مفكرة التواصل إلى زميل الفصل المكتئب. هذه معاناة كبيرة.

تذكر رينتارو أنه نسي أن يشكرها أمس، فقال بسرعة: "أشكرك على ذلك"، فبدت ملامح الانزعاج على وجه سايو.

- هل قلتُ شيئًا غريبًا؟

- أمرك عجيب فعلًا. أمس أبديتَ ضيقك واليوم تشكرني فجأة بهذا الوضوح!

- لم أكن منزعجًا على الإطلاق، ولكن ملامحك دلّت على أن مزاجك كان مشوشًا...

- مزاجي مشوش؟

طرفت سايو بعينيها فجأة، ثم أكملت على الفور:

- لم يكن مزاجي مشوشًا مطلقًا.

على العكس قالت ذلك بوجه أكثر غضبًا:

- فقط شعرتُ بالقلق عليك.

- قلق؟

همس رينتارو، ثم أمال رأسه، وأشار بالسبابة إلى نفسه:

- عليَّ أنا؟

- أليس هذا هو الطبيعي؟

نظرت سايو إليه نظرات حادة.

- كنتُ أقلق عليك كثيرًا؛ لأن جدك توفي وستضطر إلى تغيير السكن فورًا، إلى أن وجدتك تدردش باسترخاء مع أكيبا، فمن الطبيعي، والحالة هذه، أن أشعر بالاستياء.

انبهر رينتارو من سوء الفهم الحاصل.

كان يظن دائمًا أن سايو تشعر بالنفور منه، فأخذ حديثها عن الشعور بالقلق، على أنه مجاملة اجتماعية، ولكن يبدو أن الوضع اختلف الآن قليلًا.

كانت سايو تنظر إليه وهو مرتبك مذهول، ولكن فجأة راحت تنظر إليه باستحياء.

- هل بدوت سيئة السُّلوك إلى هذه الدرجة؟

لم تكن دهشته من السُّؤال المفاجئ هي سبب صعوبة الرد.

بل لأنه انتبه إلى شيء خطير، وهو أن عينيها اللتين اعتاد على رؤيتهما، في غاية الجمال. فهما بالرغم من الجيرة لم يسبق لهما أن تبادلا الحديث وجهًا لوجه هكذا من قبل.

- ماذا؟! هل بدوتُ بهذه البشاعة؟

- ... لم يكن الأمر كذلك قط.

- أنت فاشل تمامًا في الكذب يا ناتسوكي.

لم يسعفه الذكاء للرد على صراحتها بشكل ذكي، فوضع يده اليمنى على إطار النظارة كعادته دائمًا، ثم نطق أخيرًا:

- كانت لجدي أدوات لصنع الشاي.

وأشار إلى أعماق المكتبة.

- سأعد لكِ كأسًا، إذا سمح وقتك بذلك.

تنهد خفية وتمتم «يا له من كلام ساذج!!» مع أن الكلام له. ابتسمت الطالبة النشيطة برفق لاجتهاده في مراعاة شعورها.

- ما هذا؟ مغازلة...

- هذا تفسير عنيف.

- ولكنه مقابل رخيص جدًا للشكر على إتياني بمفكرة التواصل إليك.

رد رشيق وذكي. تقدمت بخفة إلى الأمام وجلست على الكرسي المدوّر جواره.

- ولكن أثمن جهودك في المحاولة.

- شكرًا... شكرًا...

اطمئن رينتارو، فواصلت هي الحديث على الفور.

- كأس شاي /دارجلينغ/ هندي مع سكر زيادة.

دوّى صوتها المشرق الحيوي داخل المكتبة وكأنه ينبئ بوصول الربيع فجأة منتصفَ الشتاء.

*

الفصل الثاني

المتاهة الثانية
«مُمَزّقُ الكُتبِ»

كان الجد إنسانًا عجيبًا بالنسبة إليه.

يعيش في عالم يختلف قليلًا عن الحياة اليومية التي يعرفها رينتارو جيدًا، فهو صموت ويصعب فهمه، ومع ذلك، فهو عجوز حكيم هادئ لا يميز ولا يفرق بين النَّاس.

يبدأ يومه بالاستيقاظ في السادسة صباحًا، فيتناول الفطور في السادسة والنصف، وفي السابعة والنصف ينتهي من إعداد علبتين صغيرين لوجبتي الغداء الخاصة به وبرينتارو، ثم يفتح المكتبة. يُغيّر هواءها مبكرًا، ويسقي أصيص الزرع عند مدخلها بالماء، ثم يودع حفيده الذي يذهب مكرهًا إلى المدرسة، ثم يغرق بعدها في خضم الكتب القديمة، ولا يتحرك حتى عودة الحفيد من المدرسة مع الغروب.

تتواصل هذه السلسلة من الأفعال وتُعاد كأنها نهر عملاق يتدفق دونما إبطاء أو جفاف ليروي الأرض الأبدية منذ قديم الزمان. يبدو هذا العجوز الصَّغير الحجم أنه قضى عمره كله

داخل هذه المكتبة الصَّغيرة لبيع الكتب القديمة، ولكن الحقيقة غير ذلك.

لم يحدثه جده عن هذا الأمر كثيرًا، ولكن رينتارو سمع من زبون يتردد على المكتبة منذ زمن بعيد، أن جده وصل في الأساس إلى مكانة عالية جدًا داخل إحدى الجامعات، ولكنه ترك العمل بعد أن أصيب بالإحباط.

قصّ عليه ذلك رجل عجوز مُهندَم ذو لحية بيضاء كثة، تتدلى من عنقه دائمًا ربطة عنق پولو أنيقة، يأتي من حين إلى آخر لشراء مجلدات الأدب وأحيانًا يشتري كتبًا أجنبية، وأخبره أنه كان زميلًا للجد في الجامعة نفسها.

في إحدى المرات، وبينما كان رينتارو ينظر إليه، وقف العجوز تحت ضوء المصباح الأصفر، وطبطب على رأس الفتى قائلًا:

- في الحقيقة... جدك إنسان عظيم.

ربما كان رينتارو حينها مايزال في المدرسة المتوسطة، وغاب الجد عن المكتبة، فوقف هو ليبيع في أثناء غيابه.

- واجه جدك المشكلات العويصة داخل المجتمع، وبذل قصارى جهده لحلها، لقد أنجز أعمالًا عظيمة بجدية بالغة حتى نفدت قواه وتحطم قلبه.

تحدث العجوز إلى الفتى صغير السن بنبرة من يتحدث بحنين إلى الماضي البعيد وهو يلامس بشغف غلاف كتاب فاخر وُضع في صندوق مغلف بالقماش.

ولكن...

ثم توقف العجوز قليلًا، متأملًا رفوف الكتب وتنهّد مكملًا:

- لم تعد قواه كافية، فترك مسرح الحياة الأمامي في منتصف طموحاته.

تبلبلت أفكار رينتارو وقتها؛ لأن عبارة «مسرح الحياة الأمامي» لا تتناسب مع جده أبدًا.

ما الذي كان يحاول جدي فعله، سأل الحفيد، فأجاب العجوز بابتسامة حنونة:

- ليست أشياء عظيمة، بل أمور عادية وبدهية. ينبغي عدم الكذب، وينبغي عدم اضطهاد الضعفاء. وتنبغي مساعدة المحتاجين...

أبدى رينتارو اندهاشا عفويًّا بإمالة العنق.

فواصل العجوز كلامه ضاحكًا:

- لم تعد البدهيات بدهيات في هذا العالم.

ثم تنهد بعمق شديد:

- انقلبت البدهيات في عالم اليوم رأسًا على عقب. انهمك الجميع في إتقان الكذب، وجعلوا الضعفاء تحت أقدامهم ليرتقوا فوقهم رافضين مساعدة أي محتاج، لم يتطوع أحد ليقول لهم: توقفوا عن هذه الأفعال غير المسؤولة!

- فتطوع جدي.

- قال: توقفوا، ومكث يشرح بصبر وأناة أن تلك أمور ينبغي عدم القيام بها.

أضاف العجوز: إن الوضع لم يتغير، ثم وضع كتابين ضخمين فوق طاولة الحساب بحرص شديد كأنه يمسك بمنحوتات زجاجية بالغة الدقة. مجلدًا «سيرة صامويل جونسون» تأليف بوزويل.

- أين المجلد الثالث؟

- في الداخل على يسار الرف الثاني من الأعلى جوار فولتير على ما أتذكر.

هزّ العجوز رأسه مبتسمًا، ثم ذهب وأحضره من فوق ذلك الرف.

- هل هذا هو سبب ترك جدي للعمل في الجامعة وافتتاح هذه المكتبة الصَّغيرة لبيع الكتب؟

- ما تقوله يا صغيري صحيح بشكل عام، ولكنه في الواقع خطأ بعض الشيء.

أضاف العجوز وهو يضحك عندما رأى الفتى واجمًا من الدهشة:

- جدك لم يهرب من الجامعة وهو يتلفت خائفًا، ولم ييأس، ولم يتخلَّ عن الإصلاح، بل غيّر طريقته فقط.

- طريقته؟

- افتتح جدك هذه المكتبة الرائعة لبيع الكتب القديمة، ليوفر كتبًا ساحرة لأكبر عددٍ من النَّاس، وكان يؤمن أن ذلك سيعيد الأمور التي تشوّهت إلى ما كانت عليه ولو بالتدريج، تلك طريقة جدك الجديدة التي اختارها. ليس طريقًا مملوءًا بالزهور، ولكنه اختيار جريء يليق بطبيعة جدك.

شرح العجوز ذلك بصبر وإصرار، ثم ابتسم بعفوية كأنه عاد إلى وعيه.

- تُرى هل الفهم صعب عليك يا صغيري؟

أحسّ رينتارو أنه صعب الفهم فعلًا.

يتذكر أن ما سمعه حينذاك كان صعب الفهم حقًّا، ولكنه الآن يرى شيئًا آخر مختلفًا.

وإن سُئل ما الذي اختلف، فلن يستطيع الإجابة. ولكن في أثناء تنظيفه المكتبة لأيام قلائل اتضح له تدريجيًّا مدى ارتباط جده الصموت بمكتبة ناتسوكي الصَّغيرة.

يستغرق التنظيف الذي يبدو رتيبًا قدرًا مذهلًا من الوقت والجهد، بدءًا بنفض الغبار عن الرفوف وانتهاءً بتكنيس المدخل. كلا، بل لعلّ رتابته بالذات هي ما جعلته يدرك مدى صبر الجد الذي بقي مواظبًا عليه بدقة وعناية دونما تراخٍ.

تأمل رينتارو المكتبة من الداخل بمشاعر عاطفية رقيقة.

من الباب الشبكي، تتسلل أشعة شمس صباح شتائي،

قُطِّعتْ على شكل مربعات صغيرة، إلى المكتبة التي قضى ساعة في تنظيفها، فجعلت ألواح الأرضية الخشبية ذات اللمعان الخفيف تتألق، تلمع وتبرق. الصخبُ الخفيف الآتي من الخارج هو لطلاب مدرسته الثانوية نفسها المتوجهين إلى ممارسة نشاط النوادي الطلابية. ضحكاتهم المرحة جاءت محمولة مع الهواء البارد النقي لتلج داخل المكتبة.

هواء منعش ومبهج للنفس حقًّا.

- يا له من استرخاء تام أيها الوريث! ما أخبار الذهاب إلى المدرسة؟

تعجب رينتارو من أنه لم يستغرب الصوت الأجش الذي سمعه فجأة، أدار وجهه إلى الخلف، ونظر إلى عمق المكتبة وهو يضع منفضة الغبار على كتفه.

يجلس القط العتابي ذو الوبر الوفير الرائع على حين غرة في آخر الممر الطويل الضيق المحاط بالرفوف، وخلفه لا يُرى الجدار الخشبي المفترض وجوده، بل يستمر الممر إلى جهة بعيدة جدًا مغمورًا بأشعة شاحبة.

نظر رينتارو إلى القط العتابي وابتسم بمرارة.

- أودّ الترحيب بك، ولكن ألا يمكنك استخدام الباب إذا ماعزمت على الدخول؟ لأنه يُفترض وجود حائط في هذه الجهة.

- الدهشة مرة أخرى أيها الوريث!

تحدث القط بصوته الأجش الذي يميزه.

برقت عيناه الخضراوان بشعاع ينم عن الذكاء.

- لو ارتبكتَ قليلًا سيكون خروجي مسليًا إلى حدٍّ ما.

- لأن قولك «المتاهة الأولى» بقي عالقًا في ذهني طويلًا. المنطق يقول: إذا كانت هناك أولى، فثمة ثانية.

- ملاحظة ذكية وتفكير حاد، وفَّرت عليَّ عناء الشرح.

- شرح؟

- يجب الذهاب إلى المتاهة الثانية، وأريد منك المساعدة.

- كنتُ أمزح معتقدًا بأنه مستحيل!

ألقى رينتارو نظرة سريعة على أعماق الممر.

- لا تقل مجددًا يجب أن ننقذ الكتب؟

أجاب القط على هذا التساؤل المتخوف بمبالغة وعجرفة لا مثيل لها:

- جوابٌ صحيييح!

*

"هناك رجل يجمع الكتب من جميع أنحاء العالم ويمزّقها".

تحدث القط بنبرة مهيبة.

قال له: إن ذلك الرجل يجمع المؤلفات، ويواصل ذلك الفعل دون اعتبار لأحد.

- ينبغي عدم تركه على هذه الحال.

جلس رينتارو على الكرسي الدوار جواره، ثم وضع أصبعه على إطار النظارة. بعد ذلك، صمت فترة، ثم راح ينظر إلى القط العتابي عند أصابع قدميه.

- ماذا تقول؟ مهما حملقتَ في وجهي، فلن يتحسن الوضع. تقبل أو ترفض، هذا هو كل شيء.

- استبدادك أشدّ من المرة السابقة.

- لولا الاستبداد لما تحركتَ، لو كنتَ رجلًا يتحرك دون إجبار لما تعذبت.

لمعت عينا القط الخضراوان لمعانًا أكثر عمقًا.

ظل رينتارو مستغرقًا في التفكير بعض الوقت، ثم أجاب أخيرًا كأنه يطلق تنهيدة طويلة:

- واضح. المطلوب أن أسير خلفك مرة أخرى، أليس كذلك؟

حيال هذا القبول السريع غير المتوقع ضيّق القط عينيه باهتمام عميق.

- موقف جيد ومتفهم خلافَ ما توقعت، كنتُ أعتقد أنك سترغي وتزبد بذي وتلك من الذرائع، كما ينبغي لفتى ضعيف الإرادة مثلك.

- لا أفهم الأمور الصعبة، ولكن جدي أوصاني بإيلاء

الكتب اهتمامًا خاصًا، لا أملك قوة إنقاذ إنسان، ولكن إذا كنتَ تحاول إنقاذ الكتب، سأساعدك.

وسّع القط عينيه الخضراوين قليلًا، ثم ضيّقهما مرة أخرى، وهزّ الرأس قائلًا:

- عظيم.

ابتسامة خفيفة ندت عن ثغر القط بشكل مقصود، لكن قبل أن يتأكد منها رينتارو، قُرع جرسُ الباب فجأة، وعندما التفت خلفه وجد وجهًا مقتحمًا لم يتوقعه، يتلصص على المكان من الباب الشبكي الذي فُتح برشاقة.

- أما زلت على قيد الحياة يا ناتسوكي؟

بحيوية ومرح تردد صوت سايو يوزوكي مسؤولة الفصل.

وعندما نظر رينتارو إلى الساعة كانت السابعة والنصف، إنها على الأرجح في طريقها إلى التدريب الصباحي لفرقة الموسيقى. ارتبك رينتارو ارتباكًا شديدًا.

- من هذه... صاحبتك؟

- هل يمكن أن تخرس؟!

مر يومان فقط على تناول سايو الشاي في مكتبة ناتسوكي.

كان قد أجابها حين قالت له: «تعال إلى المدرسة كما ينبغي» إجابة مبهمة وفي النهاية لم يفعل، وبقي في المكتبة معتكفًا لا يبرحها، لم تأته رغبة في الذهاب إلى المدرسة بعد

فوات الأوان فقط من أجل مراعاة المشاعر، ولكن ذلك لا يعني أنه لا يشعر بالرهبة أمامها.

فرؤيتها له في هذا الموقف الدقيق، وهو يتحاور مع قط منذ الصباح الباكر في يوم من أيام الأسبوع، أمر يضعه في موقف شديد الإحراج.

- ... ما... مالأمر؟

- لا، لا شيء وليس هناك أي أمر!

قطبت سايو حاجبيها قليلًا ودخلت إلى المكتبة دونما اعتبار، ثم تردد صوت القط الأجش في أذني رينتارو المرتبك.

- لا تقلق أيها الوريث، فلا أحد يستطيع رؤيتي إلا من توافرت فيه شروط خاصة جدًا، لن تكون هناك مشكلة إذا تظاهرت بعدم المبالاة.

عند سماعه له وهو غير مصدق تمامًا، تردد صوت سايو العذب.

- بالأمس لم تأتِ إلى المدرسة، وتنوي التغيب اليوم أيضًا.

- كلا، ليس الأمر هكذا بالضبط...

- إذًا ستأتي؟

- يعني... اليوم... يعني ليس...

ركّزت سايو نظراتها الحادة على رينتارو، وقد أجاب بهذا الغموض الشديد.

- إذا غبتَ، فسأضطر للمجيء لتسليمك مفكرة التواصل مرة أخرى. والمدرسون أيضًا قلقون عليك، هل تعرف كم تسبب إزعاجًا للجميع؟

تنهال عليه كلمات سايو القوية المميزة بشكل مباشر.

من حيث المهابة تفوقه بمراتب عديدة فعليًّا.

- آسف...

- ليست القضية قضية آسف.

تنهدت سايو بوجه خاب رجاؤه.

- يكفي أن تأخذ موقفًا واضحًا، إذا كنت ستأتي، تأتي، وإذا كنت ستغيب، فتغيب. كي أعرف جيدًا أنك في وضع صعب. المحيطون بك في حيرة، ولا يعرفون ماذا يفعلون؛ لأنك لا تأخذ قرارًا من الناحيتين.

كلماتها الشبيهه بالرصاص المتتابع بلا هوادة أوقعته في خجل كبير.

كان رينتارو يعتقد أن لا أحد يهتم بغيابه؛ لأن وجوده مثل عدمه، ولكن يبدو أن لمسؤولة الفصل رأيًا مختلفًا.

- بمعنى...

سمع رينتارو من خلفه صوت القط العتابي المغلف بضحكات مكتومة.

- إنها تقلق عليك بجدية، يبدو أن لديك أصدقاء على غير المتوقع.

نظر رينتارو شزرًا إلى صاحب الصوت المستمتع بالموقف، ولكن القط لم يبالِ به، وظل يضحك باسترخاء كما يحلو له وشارباه يهتزان.

غير أن سايو صاحت فجأة بصوت عالٍ «ماهذا؟!» ونظرت إلى موضع أقدام رينتارو. طبعًا كان القط العتابي ذو اللسان السليط يجلس هناك في هدوء.

لحظات من الصمت المريب.

حتى القط العتابي نفسه تسمّر، وأخيرًا تحدث وكأنه يستطلع الأمر:

- مستحيل! يُفترض أنها لا تسمعني، وبالتأكيد لا تراني...

- قط يتكلم؟!

صدم صوتها القط، وجعل جسمه ينتفض من الدهشة.

سايو التي كانت تحدق في القط العتابي منذ الصباح، ثم راحت تنظر إلى عمق المكتبة، حيث يصدر من الممر شعاع شاحب، فقدت النطق من الذهول.

- ... ما هذا؟

تأكد رينتارو مرة أخرى من مرمى بصر سايو، ثم وضع يده بهدوء على إطار نظارته.

- قلتَ شيئًا عن شروط ذات طبيعة خاصة أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

- هذا هو المفترض...

على غير عادته ارتبك القط الذي يتصرف دائمًا بعنجهية.

- حدث مهول!

- ناتسوكي!

همست سايو بمشاعر مضطربة.

- أرى شيئًا غريبًا.

- حسنًا... كنتُ أظن أنا فقط....

لم تجد سايو كلمات ترد بها على رينتارو المستهتر.

ولكن القط استعاد هدوءه الذي يتميز به، وتقدم أمام سايو، ثم انحنى انحناءة مهيبة.

- أنا تورا القط العتابي، مرحبًا بكِ في متاهة الكتب.

على غير المتوقع، كان منظر القط المنحني رائعًا ويليق به.

ردت سايو عليه بمشاعر حائرة:

- وأنا سايو يوزوكي.

ولكن في اللحظة التالية، مدت يديها البيضاوين، وحملت القط المندهش.

قالت بصوت مرح:

- قط ظريف!

فصُعق كلٌّ من رينتارو والقط معًا.

- قط عتابي ظريف، لا بل يستطيع التحدث، يا له من رائع!

همس رينتارو:

- هل توافق على هذا؟

ولكن صوت سايو الزاهر المغناج طغى على صوته، فاختفى. ناهيك عن القط الذي مسحت سايو خدها بخده، فعلا صوت مواء بلا جدوى.

- ما هذا المواء؟

تنهد رينتارو وانهارت قواه.

*

راح الثلاثة يمشون ببطء في ممر مستقيم محاط برفوف كتب عملاقة.

القط في المقدمة، تليه سايو، ثم رينتارو في الأخير. خطوات القط هادئة وإيقاع سايو رشيق، ولكن خطوات رينتارو متثاقلة.

- يوزوكي، من الأفضل أن تعودي.

كلمات رينتارو هذه جعلت سايو توجه عينيها الطويلتين نحوه.

- ماذا؟ هل تريد الذهاب في مغامرة ممتعة مع القط العجيب بمفردك؟

- مغامرة ممتعة؟

جفل قليلًا، ولكنه أكمل:

- ينبغي ألا تورطي نفسك بنفسك في أمر خطير...

- امممم، أمر خطير؟

نظرت سايو إليه رينتارو نظرات ذات مغزى.

- بمعنى أنك تطلب مني أن أرى زميلي في الفصل يتورط في أمر خطير وأتركه هاربة.

- ليس هذا ما أعني...

- ماذا تعني إذًا؟ إذا لم يكن الأمر خطيرًا، فلا مانع من ذهابي معك، وإذا كان خطيرًا، فذهابك هو المشكلة، هل أنا مخطئة؟

يعتقد رينتارو أنَّ الوصف «مباشرٌ كالخيزران» وُجِد بشكل خاص من أجل يوزوكي. إنه بصراحة مُعجب بها. منطق سايو واضح وضوح الشَّمس مقابل رينتارو المتردد، والأكثر من ذلك أنها بصحة جيدة. ليست المنافس الذي يستطيع فتى مريض بالعزلة عن المجتمع أن يتغلب عليه.

- من الأفضل أن تستسلم أيها الوريث.

تدخل بينهما القط العتابي بصوته الأجش.

- كيفما نظرنا، فأنت الخاسر.

- أعترف أنني الخاسر، ولكن لا أقبل منك وعظًا، فأنت سبب المشكلات كلها.

- لا تلمني، فليس ذنبي أنها رأتني.

أجاب القط، ولكن ليس بنفس النبرة المتعالية المعتادة، ربما لأن مشاعره ليست هادئة حتى الآن.

- حتى أنا لا أستطيع معرفة كل شيء، وهذه المرة كان الأمر خارج حساباتي تمامًا.

- تتكلم كأن جميع الأمور الأخرى ضمن حساباتك، ولكن يبدو لي أنك تسير حيثما اتفق بلا تخطيط ولا تفكير.

- لأنك خسرت في الجدال معي

تقاطع سايو بصوتها الحيوي

- فليس من المروءة أن تصب جام غضبك على القط.

- ... غضب؟

- أليس هذا ما يحدث؟

- أنا خائف من توريطك معنا، ستكون مصيبة كبرى لو حدث لك شيء.

- تكون مصيبة كبرى لو حدث لي شيء، وستكون مصيبة كبرى أيضًا لو حدث لك شيء.

حتى في مثل هذا الحوار التافه ترد بسرعة بديهة لا مثيل لها.

فقد رينتارو النطق، فأردفت سايو:

ـ أنا لا أكره شخصيتك يا ناتسوكي، ولكن لا أحب هذا السُّلوك.

قالت هذه الكلمات ببساطة، ثم بدأت السير إلى الأمام في خطوات متسارعة.

تقدمت في الممر المستقيم متخطية القط بشجاعة. وعلى النقيض مكث رينتارو يتصرف برهبة وتردد.

اقترب القط العتابي من قدميها، ولوى عنقه ناظرًا إلى الأعلى نحو رينتارو.

ـ يا لها من رومانسية الشباب!

قالها وهو يضحك بخبث.

ـ ... عمّا تتحدث؟

همس رينتارو بصوت خافت، ثم وفي اللحظة نفسها بدأ شعاع أبيض يحيط بالمكان.

*

مستشفى؟

لا عجب أن يكون هذا أول ما خطر على بال رينتارو.

لقد اخترقوا الشعاع الأبيض الناصع، ووصلوا إلى فسحة واسعة، حيث يتدافع رجال ونساء، جيئة وذهابًا، بمعاطف بيضاء.

ومع زوال الضوء الأبيض الباهر للعيون بدت معالم المكان العجيبة تتضح بالتدريج.

ينبسط أمامهم رواق هائل بُني من الأحجار، عرضه عرضُ فصلين دراسيين من فصول المدرسة، وعمقه يمتد بعيدًا إلى درجة، حيث لا يمكن رؤية آخره المؤدي إلى ساحة عملاقة على الجانب الآخر، وتنتصبُ على الجانبين بمسافات متساوية أعمدة دائرية بيضاء أُنشئت بفخامة ومتانة، يعلوها سقف مقوس بديع.

نظرة سريعة على المكان، وسيبدو وكأنه معبد يوناني، غير أنَّ اندفاع النَّاس جيئة وذهابًا لايزال مريبًا.

يظهر من بين الأعمدة تباعًا رجال ونساء بمعاطف بيضاء، ثم يختفون بين أعمدة على الجانب المقابل، يتنوعون في أعمارهم شبابًا وعجائز، وينقسمون إلى رجال ونساء، ولكنهم يتشابهون في أنهم جميعًا يرتدون معاطف بيضاء، ويحملون بأيديهم عددًا لا يُحصى من الكتب جيئة وذهابًا.

وعند النظر إلى الجدران بين الأعمدة نجد كتبًا مهولة العدد قد صُفت من الأرض حتى السقف العالي. وفي أسفل الجدار الذي بات مخزنًا عملاقًا للكتب، وزعت مكاتب ومقاعد متباعدة، حيث يأخذ أصحاب المعاطف البيضاء الكتب من الرفوف ويضعونها فوق بعضها بعضا فوق المكاتب، ثم يعيدون كتبًا أخرى غيرها إلى الرفوف. وعند تدقيق النظر، نجد ممرات ضيقة هنا وهناك في الجدران، وتظهر درجات سلالم للصعود والهبوط، حيث يخرج الرجال والنساء من ذلك المكان، ويتوقفون أمام المكاتب، وبعد أن ينتهوا من عملهم يعبرون

الممر الواسع الكبير ويختفون في الممرات التي على الجانب المقابل.

هناك من يمشي حاملًا الكتب، وهناك من يضع كتبًا بلا نهاية فوق المكاتب، وهناك من يعمل فوق سلم طويل رُكّب على رفوف الكتب، إنه منظر يصيب حقًّا بالدوار.

- ماهذا؟ يا له من مكان مهول!...

بدا انطباع سايو عشوائيًّا، بقدر ما يعبر عن مشاعرها الصادقة.

ظلت عيناها مفتوحتين على وسعهما تجولان في المكان، فمرت من أمامهما مباشرة وبخطوات سريعة امرأة ترتدي معطفًا أبيض.

أصحاب المعاطف البيضاء، لم يهتموا بالمتسللين الثلاثة، وكأنهم ليسوا في مجال رؤيتهم من الأساس. إلا أنهم يتجنّبون الاصطدام بهم، لذا من الواضح أنهم يرون، وأكثر ما يخالف الطبيعة هو أن كل هذا العدد الكبير لا يُسمع لهم صوت، شعور منفر كأن المرء يشاهد فيلمًا صامتًا بالغ الرداءة.

- هل ممزق الكتب هنا؟

- هكذا يفترض.

- ماذا نفعل؟

ردًا على سؤال رينتارو، هز القط كتفيه، وراح يمشي بشكل عشوائي:

- ليس أمامنا إلا البحث عنه.

تقدم القط العتابي بخطوات سريعة إلى رجل يسير أمامه مباشرة، رجل بمعطف أبيض، متوسط العمر، يحمل بين يديه عددًا كبيرًا من الكتب:

- عذرًا، ولكن لدي سؤال.

فوجئ الرجل بالسُّؤال، فتوقف، ثم نظر إلى القط عند قدميه بعينين لا تخفيان الضيق والتأفف. كان متين الجسم، ولكنّ وجهه شاحب شحوبًا غريبًا.

- ماذا تريد؟ فأنا مشغول.

- ما هذا المكان؟

أجاب الرجل بطلاقة شديدة على سؤال القط المتعجرف

- هنا «مركز أبحاث القراءة». أكبر مركز في العالم يجري أبحاثًا عديدة ومتنوعة حول القراءة.

مركز أبحاث القراءة؟ رفعت سايو حاجبيها في اندهاش، فتجاهلها الرجل تمامًا.

- حسنًا نريد لقاء المسؤول عن هذا المركز.

- المسؤول؟

- أجل، المسؤول عن هذا المكان. رئيس المركز، أو يجب أن نقول: دكتور أو أستاذ؛ لأنه مركز أبحاث؟

- هل تبحث عن أستاذ؟

- أجل.

- لا تتعب نفسك.

قال الرجل ذلك دون أن يحرك حاجبيه.

- من يحملون لقب "أستاذ" في هذا العالم لا حصر لهم بعدد نجوم السماء، واليابان تمتلئ بهم. جرب أن تنادي وتقول: يا أستاذ، فلا شك أن أربعة من كل خمسة من الذين يسيرون أمامك سيلتفتون إليك، كل منهم أستاذ في مجالٍ ما. يتجمع هنا عددٌ لا يُحصى من الأساتذة، من أساتذة علم القراءة السريعة إلى أساتذة علم الاختزال. وغير ذلك: علوم البلاغة، والنحو، والصرف، والصوتيات، وهنا يتجمع أساتذة جدد في شتّى مجالات البحث، من الخطوط إلى جودة الورق. ربما كان لديك أمل في العثور هنا على شخص ليس أستاذًا بدلًا من البحث عن أستاذ.

أجاب الرجل بصوت رتيب وطلاقة متناهية، فأصيب القط بخيبة أمل.

انتهز رجل المعطف الأبيض تلك الثغرة، ورحل بخطوات سريعة تاركًا لهم كلمة وداع.

ثم تلاشى في ممر على الجانب المقابل دون أن يسمع نداء القط، مهلًا.

وقف رينتارو وسايو مذهولين يحملقان في قفا الرجل الذي مشى.

- ما... ماهذا؟

بقي القط صامتًا دون أن يجيب على همسة رينتارو، ثم أخذ يمشي في الرواق الكبير.

بعد ذلك نادى على رجل آخر يمر جواره، ومع أن عمره وجسده يختلفان تمامًا عن الرجل السابق، إلا أنه لم يختلف عنه في شحوب الوجه وكثرة الكتب التي يحملها.

- ماذا؟ فأنا مشغول جدًا.

- نبحث عن شخص.

- أفضل لك ألا تفعل.

أجابه فجأة بهذه الإجابة القاطعة كالسيف.

- هذا المركز مترامي الأطراف، أضف إلى أنه لا حصر لعددٍ للأشخاص المتشابهين في: الملامح، والأفكار، والانشغال. طبعًا، كل منهم يستميت للتأكيد على التميز، ولكن حتى هذه الاستماتة من أجل التميز تنفي عنهم جميعًا أي تميز. بإيجاز، من الصعب جدًا التفريق بينهم. في مكان مثل هذا المكان، العثور على «شخصٍ ما» محدد ليس فقط أمرًا صعبًا، بل لا معنى له أيضًا.

قال الرجل: «وداعًا» ومضى في سبيله.

كان الشخص الثالث امرأة شابة نسبيًا، ولكنها كانت مثل الرجلين السابقين في شحوب وجهها وفي الإجابة بكلام غير مفهوم.

في أثناء النظر يمينًا وشمالًا بحثًا عن شخص رابع، اصطدمت سايو بشاب يمشي مسرعًا، فتناثرت الكتب الكثيرة التي كان يحملها على الأرض.

اعتذرت منه سايو، «آسفة»، وهي تنحني، فنظر إليها فقط نظرة صامتة، ثم أخذ يجمع الكتب بلا اهتمام. أسرع رينتارو إلى مساعدته في جمع الكتب وتناول كتابًا عنوانه:

«توصيات بتقنية جديدة تمامًا للقراءة».

بدا له عنوان الكتاب بلا معنى مهما حاول المجاملة والمراعاة.

وفي الحال سأل رينتارو الشاب بعفوية:

- هل تعلم أين مؤلف هذا الكتاب؟

حرك الرجل ذو المعطف الأبيض حاجبيه حركة خفيفة، ونظر إلى رينتارو الذي أعاد ما قاله على الفور:

- نحن نبحث عن مؤلف هذا الكتاب....

- إذا كنت تبحث عن رئيس المركز، فستجد غرفته في القبو أسفل هذه السلالم، وتستطيع لقاءه هناك.

حمل الرجل الكتب كلها مرة أخرى، وأشار بذقنه إلى سلالم صغيرة مقابل عمود على يمينهم مباشرة.

ثم استأنف بمبالغة نوعًا ما، ولكن دون انفعال:

- يعتكف رئيس المركز في غرفته منهمكًا في الأبحاث،

ولا يأتي إلى الطابق الأرضي إلا نادرًا. تستطيع على الأرجح أن تقابله إذا ذهبت إليه.

أحنى رينتارو رأسه بـ: «شكرًا جزيلًا»، وعندما رفعها كان الرجل قد مضى من أمامه، وأوشك أن يتلاشى في السلالم الصاعدة.

*

لم تنته السلالم الهابطة بسهولة.

دونما استعداد نفسي لذلك، هبط الثلاثةُ السلالم، فوجدوها تتابع بلا نهاية.

- هذا سبب عدم صعوده إلى الطابق الأرضي إلا نادرًا.

همست سايو بانزعاج، وابتلعت هوة سحيقة في قاع الأرض البعيد صوتها الهامس محدثة أصداء ذات إيقاع مميز.

- هل الأشياء على ما يُرام يا تُرى؟

- إذا كنت قلقة، فما زال خيار الرجوع قائمًا، فأنا منذ البداية أشجع على الرجوع.

- حسنًا، يمكنك الرجوع أولًا، أما أنا، فلن أنسحب في منتصف الطَّريق.

كلمات تنعش الروح وتطرد الكآبة.

في البداية، كانت السلالم تهبط مستقيمة، ثم تحولت تدريجيًّا إلى سلالم حلزونية ترسم خطًّا لولبيًّا. عتمة تامة وكآبة لا تنتهي وشعور بالغرق في بطن الأرض.

لا يتغير المنظر أبدًا، مصابيح تُضيئ الجدران على مسافات متساوية، وبين تلك المسافات تتراكم الكتب هنا وهناك فوق بعضها بعضًا بعشوائية هائلة، وبتدقيق النظر، نجد اختلافًا بين الجديد والقديم، ولكن في النهاية كانت الكتب كلها نسخًا من «توصيات بتقنية جديدة تمامًا للقراءة».

ومن حين إلى آخر يصعد السلالم فجأة شخص بمعطف أبيض حاملًا كتبًا مهولة العدد، ولكنه لا يلقي نظرة واحدة على رينتارو ورفيقيه، بل يمر إلى جانبهم بخطوات سريعة ملتزمًا الصمت التام.

مشوا ومشوا، هبطوا السلالم، ومع ذلك كانت العتمة تتابع بغير نهاية، وفي أثناء ذلك همست سايو فجأة:

- بيتهوڤن...؟

وعلى صوتها توقف رينتارو.

عندما أصاخ أذنيه سمع بلاشك موسيقى خافتة تأتي من أسفل السلالم.

- الحركة الثالثة من السيمفونية التاسعة لبيتهوڤن.

- السيمفونية التاسعة؟

سايو، نائب رئيس فرقة الموسيقى في المدرسة، هزت رأسها موافقة على تساؤل رينتارو بثقة.

مع استمرار هبوطهم السلالم اتضحت الموسيقى أكثر، وسمع رينتارو بوضوح أنغام الآلات الوترية عالية الإيقاع.

- الفصل الثاني.

في اللحظة التي قالت فيها سايو ذلك، تبدل اللحن، وبدأ عزف ثيمة أكثر اتساعًا. أغرتهم الموسيقى، فتسارعت خطواتهم، وعندما علت الآلات الوترية في تناغم مع آلات النفخ، كان الثلاثة يقفون أمام باب خشبي صغير في نهاية السلالم.

فوق الباب المغمور بتضاريس العمر، لوحة كُتب عليها «غرفة رئيس المركز». لا لوحات أخرى هناك ولا زينة، فقط يسمع صخبُ آلات النفخ الموسيقية خلف الباب بشكل عالٍ جدًا.

يصعُب فهم أي شيء من تفاصيل المشهد، ولكن وصول رينتارو ورفيقيه إلى نهاية السلالم كان سببًا كافيًا للارتياح.

أومأ القط العتابي لرينتارو، فطرق الباب برفق.

طرق طرقات خفيفة مرتين، فلم يأتِ رد، فطرق الثالثة بشدة أكثر، ولم يأتِ رد كذلك، كان الرد هو السيمفونية التاسعة فقط.

اضطر رينتارو عندها أن يمسك مقبض الباب ويدفعه إلى الداخل، فُتح الباب بسهولة وهو يصدر صوتًا جافًا خافتًا، وفي اللحظة نفسها هجمت عليهم السيمفونية التاسعة داخل الغرفة بصخب مهول جعلهم يجفلون.

لم تكن غرفة واسعة. كلا، ربما كانت واسعة، ولكن لا

يمكن معرفة اتساعها جيدًا، بسبب كميات الكتب وحزم الأوراق التي وضعت فوق بعضها بعضًا لتغطي جدران الغرفة الأربعة. والمساحة المحاطة بالكتب والأوراق ضيقة جدًا، ليس فيها إلا طاولةٌ واحدة في الواجهة تمامًا، حيث تكاد الأوراق تدفنها تحتها.

يجلس وراء الطاولة رجل في منتصف العمر بمعطف أبيض موليًا ظهره لرينتارو ورفيقيه.

لم يكن الرجل طويلًا، ولكنه بدين جدًا بهيئة جسدية عريضة، وبدا أنه يعمل بانهماك وتركيز، وعندما اختلس رينتارو النظر إليه من بعيد لمعرفة ماذا يفعل، صدم إذ رآه يمسك كتابًا باليسرى ليمزقه شر تمزيق بمقص في يده اليمنى.

تتطاير قصاصات الورق مع حركة المقص، فلا يعود الكتاب كتابًا.

لا يمكن وصف منظر ذلك الرجل البدين بمعطفه الأبيض الغارق حتى أذنيه في عمل مريب، إلا بأنه خارق للعادة.

- ما هذا...

سألت سايو بذهول، لم يستطع رينتارو الإجابة. حتى القط العتابي وقف يتأمل رجل المعطف الأبيض البدين في صمت.

وازدادت حدة السيمفونية التاسعة التي يتردد صداها بصخب مرعب، لم يكن مصدر الصوت الذي وُضع جوار الرجل، جهازَ أسطوانات ولا جهاز أقراص مدمجة، بل كان

شريطًا في آلة تسجيل: صاحبة الشعبية الكبرى لسماع الموسيقى في عصور مضت. تعرف رينتارو على تلك الراديو كاسيت؛ لأن جده الراحل كانت له واحدة، وهي جهاز عتيق لا يمكن رؤيته على الأغلب الآن. ويبدو دوران شريط الكاسيت حول نفسه في المنتصف وكأنه مزحة هزلية.

عفوًا، قال رينتارو للرجل ذي المعطف الأبيض، ولكنه لم يلتفت، فأعاد عليه مرة ثانية، عفوًا، ومع ذلك لم يرد. وهنا صرخ رينتارو صرخة مدوية، فتوقفت يدا الرجل أخيرًا، والتفت إليه.

- أوه! ماذا تريد؟

كان صوته رفيعًا وحادًا بطريقة غريبة، هيئته غريبة، يضع نظارة بعدستين سميكتين، ومعطفه الأبيض مملوء بالتجاعيد، وله كرش كبير بارز إلى الأمام، أصلع الرأس مع بعض الشعيرات البيضاء المتبقية. وصفه بكلمة باحث قد يكون له وقع جيدٌ على الأذن، ولكنه وإن ارتدى معطفًا أبيض، فهو لا يعطي انطباعًا بعلم أو ذكاء.

- عفوًا، وآسفٌ لإزعاجك.

- آسف أنا أيضًا، لم أنتبه قط.

صرخ الباحث بصوتٍ عالٍ لا يقل عن صوت السيمفونية التاسعة، ثم أدار كرسيه ببطء وعدل وجهته ناحيتهم.

ارتبك رينتارو وسايو لمنظر الباحث الذي تناول المقص في اليمنى والكتاب الممزق في اليسرى.

ـ آسف، آسف، ما من مقاعد يمكنكم الجلوس عليها، فمن النادر جدًا أن يأتي ضيوف إلى هذا المكان.

اخترق زعيقه صوت السيمفونية التاسعة.

ـ ماذا تريدون؟

توجه رينتارو إليه بالسُّؤال بصوتٍ عالٍ:

ـ جئنا لأننا سمعنا أن كثيرًا من الكتب تُمزق في هذا المكان. هل أنت...

ـ ما... ماذا؟

ـ سمعنا أن كثيرًا من الكتب تُمزق هنا...

ـ آسف لا أستطيع السماع جيدًا، أرجوك التحدث بصوت أعلى قليلًا.

ـ كثيرٌ من الكتب...

وفجأة صدر صوت نشاز مزعج، ثم توقفت السيمفونية التاسعة، توقف الكاسيت فجأة. وفي الوقت ذاته، امتلأ المكان بالهدوء إلى درجة أن رينتارو شعر بالبرودة.

قطب الرجل حاجبيه باستغراب، ونهض من كرسيه بتكاسل شديد، ومد يده إلى الكاسيت الموضوع على طرف المكتب.

ـ عفوًا.

حاول رينتارو التحدث، ولكن أوقفته يد الرجل البدينة.

- الشريط والكاسيت كلاهما قديم، ولذا فهما يتداخلان مع بعضهما هكذا من حين لآخر.

همس الرجل وهو يحاول إعادة الشريط إلى طبيعته.

الشريط القديم الذي سُمع مرات ومرات يحدث له أحيانًا أن يتداخل مع الكاسيت، ولكن يبدو أن هذا يحدث يوميًا لرجل المعطف الأبيض، فلم يُظهر ارتباكًا، بل أخرج الكاسيت بأصابع متمرسة، ثم أعاد الشريط الذي تهدل جيدًا، ثم وضعه مرة أخرى في الكاسيت، ثم ضغط على زر التشغيل. وقبل مرور ثانيتين بدأ بيتهوفن بصوت مهول مرة أخرى.

- حسنًا، قل لي مجددًا: ماذا تريد؟

أصيب رينتارو بخيبة أمل من الباحث الذي يرفع صوته عاليًا وسط ضوضاء الموسيقى الصاخبة.

- لا، لا تنظر إليَّ بوجهك هكذا. بيتهوفن واحد من أفضل الموسيقيين بالنسبة لي، وبخاصة السيمفونية التاسعة، أعتقد أنها تحفة رائعة. وسماعي لها في أثناء العمل يدفع بالأبحاث إلى الأمام بشكل أسرع.

- أبحاث؟! أي أبحاث؟

ألقى رينتارو تلك الكلمات بتهور، ولكن الباحث هز رأسه بسرور بالغ.

- أشكرك على هذا السُّؤال. موضوع بحثي ببساطة هو: «تعزيز كفاءة القراءة».

همست سايو في أذن رينتارو:

- إن الغرض من بيتهوڤن هو سماع ما يروقه من كلمات فقط.

- ربما، ولكن لو كان كذلك فعلًا، فلا حيلة معه.

ولكيلا يفلت من يده خيط الحوار الذي أمسكه بصعوبة، تعمد رينتارو أن يسأله على أي حال:

- ماذا تعني تعزيز كفاءة القراءة؟

- أمر سهل، ببساطة «القراءة السريعة»

أجاب الباحث بمتعة، وهو يتحرك ويطقطق بالمقص.

- في هذا العالم كتب مهولة العدد، ولكن البشر مشغولون، لا يملكون الوقت اللازم لقراءتها وفهمها جميعًا، ولكن أبحاثي ستجعل البشر قادرين على قراءة عشرات الكتب يوميًّا، ليس فقط الكتب الرائجة ذات المبيعات العالية، ولكن أيضًا الحكايات المعقدة وكتب الفلاسفة الصعبة. إنجاز رائع سيسجل في تاريخ البشرية.

- عشرات الكتب يوميًّا؟

- هل تعني بهذا القراءة السريعة؟

سألت سايو في محل رينتارو

أجاب الباحث وهو يهز رأسه موافقًا بسعادة:

- القراءة السريعة واحدة من المهارات المهمة، ولكن

القراءة السريعة العادية لا تنجح ما لم تكن الجمل مألوفة، فهي مفيدة جدًا في استخلاص المعلومات المطلوبة من جدول الأسهم على صفحات الجرائد. على سبيل المثال: لا يستطيع المبتدئ في علم الفلسفة استخدامها فجأة في قراءة كتاب هوسرل «فكرة الفينومينولوجيا»

ثم رفع سبابته السمينة بوجه تفيض منه الابتسامة وأكمل:

- وهنا نجحتُ في دمج مهارة أخرى مع القراءة السريعة.

- مهارة أخرى؟

- أي الاختصار.

بُهت كل من رينتارو وسايو وصُعقا في الوقت ذاته تقريبًا.

توقفت الموسيقى؛ لأن الحركة الثالثة قد انتهت، ثم لم يُعطيا وقتًا لأخذ أنفاسهما في ذلك الهدوء اللحظي، حيث بدأت الحركة الرابعة على الفور، ووسط آلات نفخ غير متناسقة، رفع الباحث صُوته الرفيع الحاد بزهو شديد:

- الإختصار، أو من الأفضل القول، الإيجاز. يمكن رفع قدرات القراءة السريعة لمن يتمتع بمهارة فائقة، من خلال الحصول على خلاصة الكتب بطريقة «الملخص أو الموجز»، وطبعًا تحذف من هذا الملخص المصطلحات المتخصصة والاستعارات الأنيقة والحِكم ذات المذاق العميق، ويُلغى الأسلوب الفردي، فتغدو التعبيرات عادية والمعلومات مصقولة للحد الأقصى من البساطة والصفاء، وبذلك يغدو الكتاب الذي

كان يستغرق عشر دقائق في قراءته، أقصر، ويمكن قراءته في دقيقة واحدة. على سبيل المثال:

أمسك الباحث كتابًا صغيرًا كان مرميًا عند قدميه، وأعمل فيه المقص بعشوائية، ثم انحنى إلى الأمام فجأة، وأعطاه لرينتارو.

سطر واحد.

- غضب ميلوس غضبًا شديدًا.

قرأ رينتارو السطر بصوت عالٍ، فهز الباحث رأسه برضا بالغ.

- ملخص «اركض يا ميلوس».

ذُهل رينتارو، فأكمل الرجل وهو يهز الجزء الممزق من: «اركض يا ميلوس» بيده اليسرى:

- إذا لخصنا تلك القصة القصيرة الشهيرة، فسنكتفي بهذه الجملة، إنها الجملة الأخيرة التي بقيت نتيجة عمليات متتالية من التصفية المستمرة. طبعًا، إذا استخدمنا هنا فن القراءة السريعة، سننهي قراءة «اركض يا ميلوس» في نصف ثانية. المشكلة في الروايات.

مد الباحث يده، الممتلئة باللحم والشحم عن آخرها، إلى الراديو كاسيت ورفع الصوت العالي أصلًا، فبدأت «قصيدة الفرح» تملأ الغرفة بصخب الآلات الوترية الأجش مع صدى الهدوء.

- أعمل حاليًا على «فاوست» غوته، وهدفي أن أجعلها تُقرأ في دقيقتين، ولكن ذلك في منتهى الصعوبة.

ثم ضرب الباحث بكفه البدينة عددًا من الكتب الموضوعة فوق المكتب، فتطاير بعض قصاصات من الورق المحيط؛ بسبب قوة الضربة. كانت الكتب التي ضُربت قد عُمل فيها المقص هنا وهناك، فجعلها في حالة يُرثى لها، ولم يعد يُعرف أهي فاوست أم لا.

- لقد نجحتُ فعلًا في قصقصة تسعة أعشار الكتاب، ولكن حتى عُشر هذا العمل العملاق، ما زال كبيرًا، يجب تقليصه أكثر. ثمة ضرورة لجهود مهولة، ولكن عدد القراء الذين يريدون قراءة فاوست كبير على غير العادة، وأريد أن أحقق آمالهم بأي شكل.

- «هل أنت مجنون؟» عبارة كانت على لسان رينتارو، غير أن سايو أنقذته بالكلام:

- أليس هذا غريبًا؟

حجبت موسيقى بيتهوفن صوتها الصافي الذي يُسمع جيدًا.

- غريب!! لماذا؟

- لماذا؟

لم تستطع الإجابة فورًا لشدة وضوح السُّؤال.

أدار الباحث الذي كان قد أعطاهم ظهره، الكرسي ببطء مرة أخرى، فبات في مواجهة رينتارو ورفيقيه.

ـ يُقال: إنَّ النَّاس في المجتمع المعاصر لم يعودوا يقرأون كتابًا، ولكن هذا غير صحيح، لقد انشغل الجميع، فلا وقت لديهم للقراءة بتأنٍ، صار الوقت المخصص للقراءة محدودًا، ولكن الكتب التي يريدون قراءتها كثيرة، يريد الجميع التعرف على حكايات كثيرة. فاوست وحدها غير كافية. يريدون قراءة الإخوة كارامازوف، ويريدون قراءة عناقيد الغضب. كيف يمكن تحقيق هذه الأمنيات؟

دفع الباحث عنقه الغليظة إلى الأمام فجأة:

ـ بالقراءة السريعة والمخلصات.

شعروا أن صوت السيمفونية التاسعة أصبح أعلى بكثير مما كان عليه بالرغم من أنَّ الباحث لم يلمس الراديو كاسيت.

ـ ثمة هنا أحد الكتب.

أخذ الباحث أحد الكتب القديمة من كومة الأوراق التي على يمينه مباشرة ورفعه عاليًا.

كتاب «توصيات بتقنية جديدة تمامًا للقراءة» الذي ملوا من رؤيته في أثناء طريقهم الطويل إلى هنا.

ـ هذا أبرز مؤلفاتي الذي جمعتُ فيه نتائج أبحاثي كلها، يستطيع أي قارئ أن يقرأ مائة كتاب في يوم واحد بفضل هذا الكتاب فقط. ومن المخطط مستقبلًا أن يتبعه الجزء الثاني، ثم الجزء الثالث، لذا عما قريب يستطيع البشر قراءة جميع الكتب في جميع أنحاء العالم، أليس هذا رائعًا؟

همس رينتارو بكلمة «فعلًا»، ولكنها لا تعني موافقته على هذا الرأي، بل كلمة مقاطعة، مجرد كلمة قالها؛ كي يوقف استطراد محدثه الذي يواصل الكلام بلا نهاية، فيما كان المستمعون صامتين.

- ربما تزداد سرعة القراءة فعلًا، ولكن ما يُقرأ هو شيء آخر مختلف عن الكتاب الأصلي.

- شيء آخر؟ أجل، ربما يختلف قليلًا.

- ليس قليلًا البتة!

كان هذا صوت القط الأجش:

- أنت تجمع هنا كتبًا مهولة العدد وتمزقها واحدًا بعد الآخر، فتجعلها أوراقًا بالية، بمعنى أنك تسلب الكتب أرواحها.

- أنت مخطئ.

دوى صوت الباحث مصاحبًا لرياح ثقيلة مفاجئة.

أُضيف ثقل مفاجئ إلى نبرة صوته التي كانت بطيئة حتى وقت قليل مضى، فالتزم الضيوف الثلاثة جميعًا الصمت التام.

- إنني أنفخ في الكتب حياة جديدة.

ثم تحول صوته فجأة إلى صوت عذب يحاول الوعظ:

- هل تسمعون أن الحكايات التي لا تُقرأ تزول وتختفي؟ وأنا أرى في هذا خسارة، فأُدخل عليها تغييرات قليلة فقط

لإطالة عمرها. أضع لها مُلخصًا، وأمنحها مهارة القراءة السريعة، وهكذا يمكن الإبقاء عليها في هذا العصر، وعلى آثار حكايات وشيكة الاندثار، وفي الوقت ذاته أستطيع تحقيق آمال ناس يرجون التعرف على الأعمال الخالدة بسهولة وفي وقت قصير. «غضب ميلوس غضبًا شديدًا» أليس هذا مُلخصًا رائعًا للقصة؟

ثم نهض وهو يترنح، وبدأ يحرك المقص في يده اليمنى كأنه عصا المايسترو تتساوق مع أصداء الأوركسترا في المكان.

- ألا تعتقدون أن الموسيقى والكتب يتشابهان كثيرًا؟ لكليهما وجود رائع يصبغ حياة البشر بـ: المعرفة، والشجاعة، والترويح عن النفس. أداة خاصة خلقها الإنسان من أجل أن يواسي نفسه بنفسه ويرفع معنوياته. ولكن بينهما اختلاف كبير.

دار الباحث إلى الخلف مع اللحن ذي الطبقات المتعددة، فرسم المعطف الأبيض قوسًا كبيرًا متراقصًا في الهواء. يدور الجسد المدور البدين بمهارة. وعَكسَ المقصُّ الذي يرقص في الهواء شعاعًا حادًا.

- يمكننا التماس الموسيقى في أماكن متنوعة في أثناء الحياة اليومية. من سماعات السيارة في أثناء القيادة، ومن جهاز الموسيقى المحمول في أثناء التنزه، ومن الكاسيت في مركز الأبحاث. توفر الموسيقى الشفاء للبشر بوجودها في كل مكان. ولكن الكتب مختلفة. يمكن الاستمتاع بالموسيقى في أثناء الركض، ولكننا لا نستطيع أن نفعل الشيء ذاته في أثناء

القراءة. يمكن الاستماع إلى السيمفونية التاسعة في أثناء القيام بالبحث، ولكن لا يمكن كتابة بحث وقراءة فاوست في وقت واحد. هذه المحدودية المؤسفة للكتب، هي ذاتها أكبر سبب لاندثارها، ولإنقاذ الكتب من هذا المصير الحزين، أبحث دون أي ضنّ بأي جهد أو تعب. أنا لا أقوم بتمزيق الكتب على الإطلاق، بل أنقذها.

توقفت كلماته في لحظة بدء عزفٍ منفردٍ لآلة الباريتون القوية كأنها قاست بدقة ذلك التوقيت.

لم يردّ القط على كلامه.

وشعر رينتارو بأنه يتفهم إلى حدٍّ ما مشاعره.

نفسها حالة الرجل صاحب القصر المريب الذي زاره رينتارو مع القط لأول مرة، كانت كلماته تضج بالجنون، إلّا أنَّها كانت تمتاز بحدة خارقة للعادة لا تدفع أبدًا إلى الضحك على أنها خيالُ عبثي مريض.

إنها على الأرجح حدة الحقيقة.

- في هذا العصر...

أخذ الباحث يتحدث برِفق وكأنه فهم حالة الارتباك التي أصابت رينتارو.

- يفقد الكتاب الصعب قيمته فقط؛ لأنه صعب. والجميع يريد أن يقرأ تحفة خالدة باستمتاع وخفة وسهولة وكأنه يحمّل أغاني أعياد الميلاد الشهيرة مرة واحدة معًا. يقرأ كتبًا كثيرة

بسرعة ومتعة، وإذا لم يتحقق هذا المطلب لمثل هذا العصر، لا تستطيع الأعمال البديعة البقاء. وأنا أُعمِل المقص من أجل الحفاظ على أرواح مثل هذه الكتب.

- أيها الوريث!

أعاد صوت القط رينتارو إلى وعيه.

- لا تقل لي: إنك اقتنعت.

- بصراحةً... اقتنعت قليلًا.

نعم !!؟..حملق القط العتابي في رينتارو وهو يبسط شاربيه إلى الأمام بشكل مستقيم.

في مرمى بصره أيضًا، يحرك الباحث يديه باعتزاز قائدًا للأوركسترا الخيالية التي في ذهنه. والمقص الذي في يمناه ينعكس فوقه متلألئًا ضوءُ مصباح النيون، و"قصيدة الفرح" التي بدأت بعزف منفرد، دخلت في أول عزف جماعي كبير.

- من المؤكد أن قراءة فاوست في دقيقتين أمر رائع...

- سفسطة.

- حتى لو كانت سفسطة.

كانت سايو هي التي تدخلت بهذا الرد.

- أشعر أنني أتفهم ما يقول، فأنا مثلًا بطيئة جدًا في القراءة، وأعاني لقراءة الكتب الصعبة، لذا أشعر أنني أريد أن أختار الأسهل في القراءة سواء أكانت قراءة سريعة أم ملخصات...

- تفهمين جيدًا.

التفت إليها الباحث معجبًا بنفسه.

- تفهمين جيدًا جدًا. وأنا أريد أن أكون عونًا لك.

ومن غير دراية، بدت على وجه سايو ملامح النشوة، التفتت تلك الطالبة النشيطة الذكية إلى الباحث ذي المعطف الأبيض بملامح وجه شارد كأنها في حلم يقظة.

فصرخ القط العتابي بصوت عالٍ:

- افعل شيئًا يا رينتارو... لقد استحوذ عليها.

- ماذا بيدي أن أفعل؟

حاول رينتارو أن يستجيب بعملٍ ما، ولكنّ دويًّا تردد "قصيدة الفرح" الشديد أربك تفكيره.

كان الصوت العالي سياجَ حماية يحيط الباحث بإحكام وصرامة، فيوقف تفكير الزوار ويمنعهم من الاقتراب منه.

مسح رينتارو حبات العرق التي نزّت على جبينه في غفلة منه، ثم أغمض عينيه، ووضع يده اليمنى برفق على إطار نظارته.

تُرى ماذا كان سيقول جده في مثل هذا الموقف؟

اجتهد في أن يتذكر وجه جده في أثناء استغراقه في التفكير وهو يُميِّلُ كأس الشاي ليشرب منه، عيناه الهادئتان اللتان تتابعان حروف الطباعة. عدسات النظارة التي تعكس أشعة

المصباح الوديعة. أصابعه الممتلئة بالتجاعيد التي تقلب الصفحات برفق.

«هل تحب الجبال يا رينتارو؟»

فجأة تردد صوت عميق في عقله الباطن.

تحدث إليه جده بصوت هادئ في أثناء إعداده الشاي بحركات لا هدر فيها.

«هذه جبالٌ يا رينتارو»

«لا أعرف، فلم يسبق لي أن تسلقتُ جبلًا من قبل»

أجاب رينتارو بضجر؛ لأنه كان غارقًا حتى أذنيه في الكتاب الذي بين يديه. ابتسم الجد برفق، وجلس جوار حفيده الذي يقرأ في الكتاب.

«قراءة الكتب تشبه تسلق الجبال»

«الكتب والجبال؟»

اندهش رينتارو، فرفع وجهه أخيرًا عن الكتاب.

رفع الجد كوب الشاي، وحركه ببطء حول عينيه كأنه يستمتع برائحته الزكية.

«القراءة ليست فقط متعة وتشوق، بل تتقدم القراءة أحيانًا ببطء ومعاناة، قراءة كل سطر على حدة مرات عدة وفحصه بعناية، ونتيجة هذا العمل القاسي تتفتح آفاق القارئ فجأة مثلما ينفتح المنظر أمامك فجأة بعد الانتهاء من صعود طريق جبلي طويل طويل».

في ضوء المصباح القديم ارتشف الجد من كأس الشاي هادئًا مطمئنًا، فكان كالحكيم العجوز الذي يظهر في روايات الفانتازيا القديمة محتفظًا بهدوئه حتى النهاية.

«والقراءة أحيانًا تكون قاسية»

لمعت عينا الجد الضيقتان خلف نظارة القراءة.

«من الجميل أن تكون القراءة ممتعة، ولكن المناظر التي يمكن مشاهدتها في صعود ممتع لطريقٍ جبلي هي محدودة، لا تلُم الجبال لوعورتها، فمن متع الجبال صعودها خطوة خطوة بأنفاس لاهثة».

مد ذراعه النحيلة ووضعها على رأس رينتارو.

«طالما ستصعد في النهاية، اختر الجبال العالية، لترى مناظر خلابة نادرة».

كان صوته دافئًا.

شعر رينتارو بالدهشة مجددًا من أنه تبادل مع جده مثل هذا الحوار فيما مضى.

- أيها الوريث!

فتح رينتارو عينيه المغمضتين عندما سمع صوت القط العتابي المفاجئ.

وعندما التفت إلى الخلف كان منظر سايو الواقفة جواره قد تغير بوضوح.

فقدت وجنتها الوردية صحتها الدائمة، وعكست عيناها اللتان تفيضان حيوية، ضوءًا رتيبًا باردًا شاحب اللون. كان لون وجهها العجيب الشبيه بالجمادات، هو نفسه لون وجوه ذوي المعاطف البيضاء الدائبي الحركة الذين كثيرًا ما شاهدهم قبل وصوله إلى هذه الغرفة.

وفي عز ارتفاع صخب السيمفونية، كانت سايو على وشك السير كأن شيئًا ما يجذبها إلى الباحث، فأمسك رينتارو بيدها في حركة شبه لا إرادية وأعادها، اليد العائدة كانت باردة كالثلج، عادت سايو بأطرافها النحيلة وقد باتت بلا حول ولا قوة لدرجة مرعبة.

شعر رينتارو برعشة برد، فتجهم وجهه، ومع ذلك سحب يد زميلته المتهاوية، وأجلسها على كرسي دائري صغير جواره.

- أيها الوريث، لن تكسب من هذا وقتًا طويلًا.

- أعرف ذلك.

لم يرتبك رينتارو من تحذير القط العتابي المتأزم، فرينتارو ليست له علاقة بهيبة القط العتابي ولا بسرعة بديهة سايو، ولكنه خَبِرَ الأزمات غير المنطقية والحالات الطارئة، خبرة طويلة في الحياة اليومية الباهتة.

يقف الباحث ذو المعطف الأبيض وسط الغرفة في يمناه مقص، وفي يسراه كتاب يحرك يده كأنها تمسك بعصا المايسترو. ومع كل حركة من المقص يتمزق الكتاب في يسراه، وتتطاير قصاصات الورق في الهواء.

لا يفهم رينتارو جيدًا معنى "كفاءة القراءة".

ولكنه يفهم أن الملخصات والقراءة السريعة تُفقِد الكتب قوتها المميزة.

فقصاصات الورق الممزقة ليست في النهاية إلا قصاصات ورق.

والإنسان كلما يستعجل دونما ضرورة، تغيب عنه حقائق كثيرة. يستطيع إذا ركب القطار أن يذهب إلى أماكن بعيدة جدًا، ولكنه سيخطئ إذا اعتقد أن معلوماته وخبرته ستزيد بالمقدار نفسه، لا يستطيع رؤية أزهار الطَّريق وطيور الأشجار إلا من يتنزه بصدق ويمشي على قدميه.

وبعد تفكير عميق خطا رينتارو خطوة إلى الأمام لمواجهة الباحث.

اقترب وهو يحرص على عدم التسرع وعدم الارتباك وعدم إظهار قراره النهائي بسرعة، حتى وصل إلى أمام الباحث. مد يده إلى الراديو كاسيت التي فوق المكتب مصدرِ الصوت الصاخب للسيمفونية التاسعة.

فظهرت فجأة يد الباحث البدينة، وأمسكت بكمّ رينتارو.

- أرجوك لا توقف الموسيقى، فهي مهمة جدًا بالنسبة لي.

- لن أوقفها.

ارتبك الباحث، بينما كانت نبرة الفتى هادئة، وعند هذه الفجوة ضغطت إصبع رينتارو على زر الإسراع في الكاسيت.

فبدأت السيمفونية التاسعة فجأة تُسمع مخنوقة ممزوجة بصوت نشاز وبثلاثة أضعاف السرعة العادية. "قصيدة فرح"، سريعة ومتعجلة ومزعجة وبلا هدوء.

- توقف عن ذلك، فأنت تدمر قيمتها.

- هذا رأيي أيضًا.

أجاب رينتارو بهدوء، ولكنه مع ذلك لم يبعد إصبعه وسط الضوضاء الصاخبة.

- أنا أيضًا أرى الرأي نفسه، ولكن بالإسراع يمكنك سماع السيمفونية التاسعة التي تحبها مرات أكثر.

حاول الباحث أن يجيب بقوله ماذا تقول؟ ولكنه قطّب فجأة حاجبيه الغليظين وابتلع كلماته.

ثم واصل رينتارو كلامه:

- ولكن... إذا زادت السرعة ضاعت الموسيقى هباء، فالسيمفونية التاسعة لها سرعتها المحددة، إذا أردت حقًا أن تستمتع بالموسيقى.

أبعد رينتارو إصبعه عن زر الكاسيت، فاستعاد الكورال سرعته المهيبة.

- هذا اللحن يُسمع بسرعته المحددة. زيادة سرعته أسوأ شيء يمكن فعله.

دوت أصوات الكورال بـ "قصيدة الفرح" كالطوفان

فرودي! فرودي! وقد علت عن البداية بمقدار أوكتاف واحد، ترددت الأنغام داخل الغرفة بهيجان وانتشاء.

التفت الباحث إلى رينتارو وهمس همسًا خافتًا وسط تلك الأصوات المتدفقة الصاخبة:

- أتريد القول: إن الكتب أيضًا كذلك؟

- على الأقل الملخص والقراءة السريعة تشبه سماع النهاية فقط بسرعة زائدة.

- النهاية فقط بسرعة زائدة...

- ربما كان ذلك مشوقًا بحد ذاته، ولكن لا علاقة له بسيمفونية بيتهوڤن التاسعة، إذا كنت تحب السيمفونية التاسعة، فيُفترض بك إدراك الفرق. كما أدرك أنا حبي للكتب.

توقف الباحث عن تحريك المقص الذي كان يحركه حركة دائبة، يقبض عليه الآن فقط.

فكر بصمت مدة، ثم وجّه عينيه من تحت حاجبيه الغليظين إلى رينتارو.

- ولكن الكتب التي لا تُقرأ تختفي وتزول!

- أمر مؤسف.

- فهل توافق عليه؟

- كلا، لا أوافق. ولكن أرى أيضًا أن اختصار قصة «اركض يا ميلوس» العظيمة في جملة واحدة، أمر مؤسف

بالدرجة عينها. ومثلما أن الموسيقى لا تتألف من النوتات الموسيقية فقط، فإن الكتب كذلك لا تتألف من الكلمات فقط.

- ولكن...

أخرج الباحث صوتًا مكتومًا وهو يقبض على المقص بيده.

- ولكن النَّاس اليوم نسوا قراءة الكتب بتأنٍ. ألا ترى أن المجتمع اليوم يحتاج إلى القراءة السريعة والملخصات؟

- لا علم لي بهذه الحكايات.

ردًّا على هجوم رينتارو المباغت، فتح الباحث عينيه الصَّغيرتين خلف نظارته إلى درجة تثير السخرية.

- أنا أحب الكتب فقط، ولذلك...

قطع رينتارو حديثه مرة، ثم التفت إلى محدثه.

- حتى وإن كان ذلك يريده المجتمع، فأنا ضد تمزيق الكتب.

كان العزف قد انتهى في غفلة من الجميع.

تلاشت الموسيقى التي كانت تضغط بقوة على هواء الغرفة، فلا يُسمع إلا صوت دوران شريط الكاسيت فقط، كان خروج ذلك الصوت الغريب من الراديو كاسيت وسط جو من الصمت خانقًا للأنفاس.

- ... أنا أيضًا أحب الكتب.

همس الباحث بإحباط.

هزّ رينتارو رأسه هزة خافتة.

من البداية لم يشعر رينتارو أن الباحث سيئ النية.

فمن يكره الكتب لا يفكر مثله، وفي كلماته حقيقة مؤكدة: رغبة الإبقاء عليها وتوصيلها إلى أكبر عدد ممكن من البشر.

من يفكر بهذه الطَّريقة يستحيل ألا يكون محبًا للكتب.

ولكن...

- تمزيقك للكتب أمر مؤكد، يتابع رينتارو، وأنت كائن يحب الكتب،

رفع الباحث ذقنه قليلًا، ثم تنهّد بعمق.

- هذا ليس مدحًا.

رفع الرجل يده اليمنى التي تمسك بالمقص.

ثم فتح قبضة يده مع ابتسامة مريرة، فأطلق المقص شعاعًا مفاجئًا، ثم تلاشى. وفي اللحظة ذاتها سُمع صوت طيران الأوراق في الهواء. لم يُسمع الصوت فقط، بل ارتفعت الأوراق المتراكمة في طول الغرفة وعرضها، وبدأت تتطاير في الغرفة بالرغم من عدم هبوب رياح.

جزع رينتارو وتقهقر خطوات عدة إلى الوراء.

صارت مِزق الورق مهولة العدد تتراقص في الهواء، وغدت في الحال عاصفة من قصاصات تشبه الثلوج، فصبغت مجال الرؤية باللون الأبيض. تطايرت القصاصات أمام عيني رينتارو

الذي راح يراقبها في ذهول، تتجمع وتندمج مع بعضها بعضًا، ثم تلتحم معًا وفي النهاية تعود إلى صورتها الأصلية على شكل كتاب.

وسط غرفة تتطاير فيها الكتب والأوراق يقف الباحث بمعطفه الأبيض هادئًا في كآبة.

وبدت كتفه البدينة المُدوَّرة شديدة الحزن، فتناول رينتارو بيده أحد الكتب الذي عاد إلى صورته الأولى فوق المكتب جواره مباشرة، وأعطاه إياه.

نظر الباحث إلى غلاف الكتاب وهمس:

- اركض يا ميلوس!

- إنها حكاية أحبها أنا أيضًا. ما رأيك لو تقرأها مرة بصوتٍ عالٍ وتأنٍّ؟ سيستغرق ذلك بعض الوقت، ولكن لن تندم.

أخذ الباحث الكتاب قليل الصفحات وراح يتأمله قليلًا من الوقت دون أن يحرك ساكنًا.

ما زالت عاصفة الثلج المتطاير من قصاصات الورق الأبيض لا تخف حدتها. غير أنَّ عددًا من الكتب التي استعادت صورتها الأولى ابتعدت عن سيل الورق الجارف واصطفت فوق رفوف الكتب المحاذية للجدران. عادت الكتب إلى الرفوف واحدًا بعد الآخر، بدءًا من الكتب الصَّغيرة التي بلا زينة أو زخرفة، وصولًا إلى الكتب العملاقة الفاخرة ذات الأغلفة المجلدة بجلد طبيعي، عادت في منظر شديد المهابة.

بدأت الغرفة كلها تتشح بأضواء خافتة بالتدريج، وفي الوقت ذاته، قرعت أذنيّ رينتارو أنغام قصيدة الفرح فجأة.

نظر رينتارو إلى الراديو كاسيت الموضوع فوق المكتب، ولكن شريط الكاسيت لم يكن يدور في داخله.

بل كان الباحث يدندنها!

تناول الباحث كتاب "اركض يا ميلوس" بإحدى يديه، وراح يدندن هازًا عنقه مستمتعًا وهو يخلع المعطف الأبيض بحركات بطيئة، ليرميه فوق المكتب الذي خلفه. غمرت الأشعة البيضاء حتى المعطف الذي ألقي به.

- أيها الضيف الصَّغير!

ابتسم الباحث لرينتارو وهو ينزع ربطة عنقه المتدلية فوق صدره.

- كان وقتًا ممتعًا، أتمنى لك مستقبلًا أفضل.

دوّى صوته بمهابة، ثم انحنى انحناءة بسيطة، واستدار إلى الخلف وراح يمشي.

لفّت الأشعة البيضاء ظهره الصَّغير فيما كان يدندن بعض الألحان.

وأخيرًا ابتعد اللحن البهيج وذاب كل شيء وسط الضوء.

*

فتحت سايو عينيها لا إراديًّا، ولكنها مكثت بلا حراك.

أجالت البصر حولها محاولة أن تتعرف على الوضع.

كانت نائمة في ركن بمكتبة ناتسوكي، يبدو أنها استسلمت للنعاس وهي جالسة على الكرسي الدائري الصَّغير تستند بظهرها على رف الكتب. ربما كان أقصى ما بوسع أحدهم أن يفعله مُراعاة لها هو أن يغطيها ببطانية ويشعل مدفأة الكيروسين جوارها مباشرة. يتصاعد البخار من إبريق أبيض وُضع فوق المدفأة.

نظرت إلى الباب، فرأت أشعة الشَّمس الصباحية المشرقة. يقف زميلها موليًا الظهر لتلك الأشعة الباهرة واضعًا يده على إطار نظارته، غارقًا في التفكير.

زميل الفصل الذي اعتادت علىٰ رؤيته لا يتحرك تقريبًا، يتأمل رفوف الكتب ويلفه جو من مهابة وجلال. يوجه إلى صفوف الكتب نظرات جادة كأنه ينسخ أغلفة كل كتاب في قاع عينيه، ويخزن في أعماق قلبه الحكايات المكتوبة.

- أنت تحب الكتب حقًا.

فتحت سايو فمها على استحياء، فالتفت إليها رينتارو كأنه لأول مرة ينتبه إلى وجودها، ثم تنهّد على الفور تنهيدة اطمئنان.

- جيد، جيد. كنتُ غارقًا في التفكير، ماذا أفعل لو بقيتِ نائمة ولا تصحين! كان نومك عميقًا جدًّا.

- مرهقة من متابعة التمارين الصباحية كل يوم، انتبه، فأنا لا أنام هكذا ببساطة في بيوت الغرباء.

أجابت سايو بصوت أكثر حيوية ونشاطًا من المعتاد؛ لأنها شعرت باحمرار خديها من الخجل، ولكي تتغلب على الخجل وتخفيه، واصلت:

- أشكرك يا ناتسوكي، يبدو أنني سببت لك إزعاجًا كبيرًا.

- إزعاج؟

- لقد حملتني من ذلك المكان العجيب، أليس كذلك؟

أبعد رينتارو عينيه عن سايو، ثم بعد أن لوى عنقه متعمدًا:

- هل رأيتِ حلمًا غريبًا؟

- اسمع...

وجّهت سايو إليه نظرات صارمة.

- لا تعتقد أنه بإمكانك تصوير ما حدث كأنه حلم، هذا مستحيل؛ لأنني أتذكر كل شيء. القط القادر على الكلام، وممر رفوف الكتب، ومركز أبحاث الكتب العجيب. هل أقول لك أكثر؟

- كلا... هذا كافٍ.

هز رينتارو يديه الاثنتين في عجل.

- سأتوقف عن المقاومة التي لا تفيد.

- عظيم.

هزت سايو رأسها وهي تضحك.

تجلت لها في المخيلة مناظر عدة من تلك الأحداث العجيبة، ثم اختفت.

أصحاب المعاطف البيضاء بخطواتهم المستعجلة، سلالم بلا نهاية، دوي السيمفونية التاسعة والحوار الغريب.

وفي منتصف الحوار غدت ذاكرتها ضبابية، لكن إحساسها بيد زميلها الدافئة تسترجعها من وسط ظلمة شاسعة كأنها ستغرق في قاع بحر عميق، شيء مؤكد.

يد واثقة كأنها ليست يد هذا الفتى الهادئ.

- أين ذلك القط؟

هز رينتارو رأسه يمنة ويسرة ردًا على سؤال سايو المفاجئ.

- اختفى في أثناء العودة. في المرة السابقة أيضًا مضى دون أن يلقي التحية.

- أي ربما يتجدد اللقاء معه؟

- يبدو أنك سعيدة جدًا.

علت وجه رينتارو ملامح الانزعاج:

- لا أريد أن أورطكِ أكثر من ذلك في أحداث غير مفهومة.

- أنا بالفعل متورطة بشكل كافٍ.

تعمدت سايو أن تقول ذلك بمرح، ثم قامت من على الكرسي، وتمطت طويلًا.

تسكب الشَّمس أشعتها الزاهية خارج المكتبة. بالنظر إلى ساعة المكتبة، يبدو أن الوقت لم يمضِ تقريبًا منذ دخولها كأنها جاءت للتو. الحياة تسير بشكل عادي جدًا، إلى درجة التصديق أن ما حدث كان حلمًا بالفعل.

ضيقت سايو عينيها وهي تنظر إلى أشعة الصباح الصافية، ثم غيرت مجرى الحديث فجأة.

- هل استعدادات الانتقال من السكن تجري على ما يرام يا ناتسوكي؟

- لم أفعل أي شيء.

- أي شيء؟... أليست هناك مشكلة؟

- هناك مشكلة بالتأكيد؟

لوى رينتارو عنقه، ثم أكمل:

- أشعر أنني لمَّا أقتنع بعد بالأمر.

- تقتنع؟

- لا أدري كيف أشرح ذلك، ربما كنت لا أريد الابتعاد عن هذا المكان. أعلم أنني لست في وضع يسمح لي بهذا القول، ولكني أشعر بأزمة لعدم التكيف مع الأمر، ولهذا، فأنا الآن أفكر في صمت.

- الوضع لن يحل بالتفكير، أليس كذلك؟

لم تقل سايو ذلك.

بل كانت، وبمشاعر لم تتوقعها، تتأمل ذلك الوجه الجانبي الغارق في التفكير وعيناه تنظران إلى مكان بعيد.

يتحدث رينتارو كعادته بتلعثم وبلا انتظام، فيصعب إدراك ما يبغي أن يقول، وأحيانًا يتوقف حديثه بشكل غامض، وهذا لا يعني أنه متذبذب أو عاجز عن اتخاذ قرار، ولكن هذا يدل، إذا جاز التعبير، على أنه يواجه بجدية صادقة مشاعر جمة تتصارع في أعماقه.

تلك هي شخصيته...

فتحت سايو عينيها كأنها اكتشفت شيئًا مميزًا.

ربما تقبع خلف تلك السلبية، جدية تدل على صدق شديد يصل إلى الحماقة.

أمام باب المكتبة، يمر فجأة عددٌ من طالبات الثانوي ويضحكن بصوت عال.

انتهزت سايو تلك الفرصة وتحدثت بصوت مشرق:

- اسمع، رشّح لي كتابًا تنصح به.

أجاب رينتارو بارتباك.

- حسنًا، ولكن الكتب التي أنصح بها صعبة.

- لا مانع، فبعد ذلك كله لن أعتمد على الملخصات.

- هذا مشجع ومُطَمْئِن.

ضحك رينتارو، هز رأسه وتوجه إلى رفوف الكتب وهو يضع يده اليمنى على إطار نظارته.

بدا وهو مقابل رفوف الكتب، ثابتٌ تمامًا، كأنه خبير، يفيض بالحكمة والتجربة مما جعل سايو تجفل قليلًا.

- حسنًا... تُرى ما الأفضل؟

همس رينتارو ببطء، وبدا واثقًا من نفسه، مليئًا بطاقة حيوية تنسف الانطباع السائد بأنه غير موثوق ولا يُعتمد عليه.

استمرت سايو لهنيهات تراقب بعينين ضيقتين وانبهار زميل الفصل الذي غرق في تفكير صامت موليًا ظهره لأشعة الصباح.

الفصل الثالث

المتاهة الثالثة
«بَائِـعُ الكُتُــبِ»

- وبهذا ينتهي درس اليوم، انتبهوا في طريق العودة إلى بيوتكم.

تحدث مدرس الفصل من فوق منصة الدرس بصوت يُسمع جيدًا، وفي اللحظة نفسها تقريبًا بدأ الطلاب ينهضون تباعًا من مقاعدهم.

- أخيرًا، انتهى الدرس.

- لقد جعت.

- هل عندك اليوم تدريب؟

تطايرت الأصوات هنا وهناك، فملأت الفصل بضوضاء صاخبة، وضعت سايو يوزوكي الكتاب المدرسي والكراس داخل حقيبتها، ثم نهضت. واختلست نظرة سريعة إلى وسط طلاب يتحاورون بحماس على مقعد فارغ وحيد جوار النافذة.

- غاب اليوم أيضًا...

إنه مقعد رينتارو ناتسوكي.

أساسًا، حتى وإن حضر لا يحدث في جو الفصل أي تغيير ولا أحد ينتبه بسبب هدوئه التام، كانت سايو نفسها حتى وقت قريب مثل زملاء الفصل الآخرين.

لكن الوضع اختلف اليوم.

يمكنها إيجاد أسباب عديدة لذلك، فهي مثلًا مسؤولة الفصل أو هي جارته التي عليها تسليمه مفكرة التواصل مجددًا، ولكن سايو نفسها تدرك أن ذلك كله ليس لب الموضوع.

الانطباع السابق عن رينتارو، كولد محب للقراءة وذو حضور هادئ وخفيف، حلت مكانه الآن في ذهن سايو صورة أخرى تمامًا ومعها أيضا القط العتابي العجيب.

- ماذا؟! غاب ناتسوكي اليوم أيضًا.

نزلت تلك الكلمات فجأة على رأس سايو، فالتفتت نحو الممر.

يُرى عبر النافذة طالب طويل القامة من الصف الأعلى.

إنه ريوتا أكيبا كابتن فريق السلة في المدرسة وصاحب أذكى عقل بين طلاب صفه، يوزع ابتساماته التي لا ضرورة لها على طلاب الفصل، ويشد بصوته الخاص أنظار الطالبات الدافئة.

- ماذا تريد يا حضرة المتقدم أكيبا؟

وجهت إليه سايو نظرات باردة لا تُخطئها العيون.

ينتمي الاثنان إلى اتحاد الطلبة، فبينهما تعارف إلى حدٍّ ما، ولكن سايو لا يعجبها الجو المفعم بالنفاق الذي يعيشه، وطبيعتها لا تتناسب مع تغليف ما لا يعجبها بمجاملات اجتماعية، فتضع دونما استحياء مسافة بينها وبينه، ويدرك أكيبا ذلك، ولكنه بالمقابل يتعمد التحدث إليها والاستمتاع برد فعلها.

- في النهاية انقطع ناتسوكي تمامًا عن المجيء، يا لها من مشكلة!

- كلامك ياحضرة المتقدم غير مقنع إطلاقًا، بعد ذهابك إليه ومرافقته في التهرب من المدرسة.

- حديث مزعج، لقد ذهبت من أجل مواساة زميل عزيز رحل أحد أفراد عائلته وأضحى مريضًا بالعزلة.

قال ذلك وهو يرسل غمزاته إلى طالبة مرت جواره، فبدا وكأنه يتعمد أن يكون غير لبق.

فقالت له سايو وهي تصليه بنظرات حادة:

- حسنًا، مادام الأمر كذلك هل يمكنك تسليمه مفكرة التواصل في أثناء مواساته ثانية؟ وهناك أيضًا مطبوعات الأمس أيضًا.

- ماذا؟! ألن تذهبي أنت وتسلميه إياها؟

- تصعب عليّ مواساة طالب حزين بعد وفاة جده، هذا أسهل بين الطلاب الذكور.

- عذرًا، التباعد الشديد بيني وبينه في أشياء كثيرة، درجة الذكاء والقدرات البدنية والمظهر الخارجي والشخصية، يجعل التفاهم بيننا صعبًا للغاية.

يتقيأ هذا المتقدم سمومه بكلام عذب كالعادة.

- فضلاً عن...

وجه إليها أكيبا وبشكل مقصود ابتسامة ذات مغزى.

- بما أنك اشتريتِ كتبًا من مكتبة ناتسوكي، أليس عليكِ أنتِ الذهاب؟

كانت عيناه تنظر بدقة إلى المجلد الكبير الذي تحضنه سايو.

- لم أتوقع أن نائبة رئيس فرقة الآلات الموسيقية تهتم بالكتب التقليدية القديمة.

- حين أرى زميلًا لي في الفصل يعتكف في المكتبة ولا عمل له سوى القراءة، فمن الطبيعي أن تأتيني رغبة خفيفة في القراءة، ولكن كلما أفتح الكتاب وأشاهد هذا الكم من الحروف والكلمات تتصلب كتفي ويصيبني الكدر.

- مع أن أوستين اختيار جيد.

تغيرت نبرة أكيبا قليلًا.

- باب يسهل الدخول منه إلى عالم الأدب ويناسب الفتيات. هذا هو ناتسوكي الرائع.

شعّ من أعماق عينيه وميض خافت لا يليق بطالب ذكي.

تنهدت سايو بصمت... تبًّا.

تتغير ملامح عشاق الكتب تمامًا عند الكلام عن الكتب.

بشيء من الحيرة الخفيفة، عدّلت سايو طريقة حملها رواية «كبرياء وتحامل».

*

- حسنًا يارين ـ تشان، وليكن عليك ما تبقى من أمور.

مع هذا الصوت الناعم المشدود، أصدر محرك سيارة فيات 500 بيضاء صوتًا صاخبًا، ثم انطلقت بخفة.

إنه وقت الغروب، حيث بدأت الشَّمس بالميلان، وهي تصبغ سماء الشتاء الزرقاء الصافية بلون أرجواني فاقع.

ودع رينتارو السيارة الصَّغيرة التي تستقلها عمته، ملوّحًا بيده اليمنى تلويحًا مبالغًا فيه حتى لا يثير قلقها في الوقت الحالي، تأكد من انعطاف السيارة البيضاء عند الركن البعيد، فتنهد أخيرًا وهو يهمس:

- لا تناديني بـ رين ــ تشان يا عمتي...

كان ذلك رجاءه الحار.

في أعماق أذنيه، بقي صوت عمته المشدود وقد غادرت للتو.

- هل تسمعني يا رين ــ تشان. جمّع أغراضك كلها، واستعد جيدًا للانتقال.

منذ رحيل الجد والعمة تتردد على البيت كل يوم تقريبًا، ولكنها اليوم فقط أخبرته بموعد إخلاء البيت.

شخصية العمة مرحة ومتفائلة، ولم يجد صعوبة في التَّعامل معها حتى الآن. جذابة بالرغم من قصر قامتها وميل جسدها إلى البدانة، وعندما تركب سيارتها الصَّغيرة وتنحشر فيها، تبدو مثل أقزام الغابة في كتب الأطفال الملونة القديمة.

ولكن مقارنة بمظهرها الخارجي، فهي تنهي عمل كل شيء بسرعة ورشاقة، فقد انتهت من ترتيب غرفة الجد بسلاسة ودون تعقيدات.

«اعتزال النَّاس وبقاءك وحدك هكذا سيصيبك بالكآبة»

يعرف رينتارو أن هذه الكلمات نابعة من قلقها عليه، لقد صار واضحًا أنه لم يعد بإمكانه الاستمرار وحيدًا هكذا شارد الذهن داخل المكتبة. ولكن مشاعره ما زالت في مكانها بلا حركة.

ودع سيارة عمته الفيات، ثم شاهد مسؤولة الفصل عائدة من المدرسة على الجانب المقابل من الطَّريق، فشعر بالنجاة إلى حدٍّ ما.

- أمر نادر! معتزل النَّاس، يقف في الخارج!

اقتربت منه سايو بخطوات حيوية كعادتها دائمًا.

- عائدة من المدرسة؟

- عائدة من المدرسة؟، نعم، وتسألني أيضًا، لماذا غبتَ دون إذن مجددًا؟ أنت ماذا تفعل؟

نظراتها الحادة الباردة، تمنح الروح انتعاشًا بلا تحفظ أو تردد.

أسرع رينتارو إلى تغيير مجرى الحديث، فنظر إلى الجانب المقابل من الطَّريق.

- إنها عمتي، جاءت لتبلغني بضرورة الانتهاء من استعدادات النقل. ستأتي شركة نقل العفش بعد غدٍ.

- بعد غدٍ؟

أُخذِتْ سايو على حين غرة، فرفعت حاجبيها.

- مضى أسبوع على رحيل جدي. يبدو غير مقبول أن ندع طالب ثانوي يعيش وحيدًا وهو لا يعرف شيئًا عن الحياة.

- هادئ كأن الأمر لا يعنيك.

- لست هادئًا على الإطلاق، ولكن...

- غارق في التفكير؟ إذا لم تتوقف عن التفكير فترة سيصاب مخك بالإرهاق.

ابتسم رينتارو رغمًا عنه لسرعة بديهتها السباقة.

- لذا فاليوم هو آخر مرة تضطرين فيها إلى تسليمي مفكرة التواصل.

- ليست مفكرة التواصل.

ورفعت سايو الكتاب الذي كان تحت إبطها.

- كان ممتعًا جدًا.

وجاء دور رينتارو في الاندهاش.

- هل انتهيت من قراءته؟

- أجل، شكرًا لك .لم أنم جيدًا مدة يومين كاملين.

بالرغم من النبرة التي تدل على الانزعاج، إلا أنه لمح ابتسامة في عينيها، عينيها اللتين راحتا تجولان داخل المكتبة:

- هيا رشح لي كتابًا آخر، ولأنه لم يعد يتبقى سوى يومين على النقل، فلا بأس من شراء كتابين أو ثلاثة دفعة واحدة.

ثم دخلت إلى المكتبة بحيوية دون أن تنتظر الإجابة.

أسرع رينتارو إليها، وكاد أن يصطدم بها بعد أن توقفت فجأة عند مدخل المكتبة.

- يوزوكي؟ ثم أدرك الوضع بعد أن نظر إلى داخل المكتبة.

- يا لروح الشباب أيها الوريث!

إنه القط العتابي متين البنية، بألوانه الثلاثة، وعينيه الخضراوين اللتين تشعان بريقًا دونما ابتسامة.

يقف بهدوء وظهره إلى ممر الكتب المضاء بأشعة خافتة.

- من الجيد أن ترتاح بلا عمل كعادتك.

- مع الأسف أنا مشغول جدًا تجهيزًا للانتقال.

- كلام عشوائي رخيص، هل فعلتَ شيئًا واحدًا؟

هكذا قضى على مقاومته بسهولة شديدة، ثم نظر إلى سايو وطأطأ رأسه لها بأدب بالغ:

- يشرفني لقاؤك مرة أخرى، أشكرك على رعاية الوريث دائمًا.

- عفوًا، لا أفعل شيئًا.

ردت سايو بوضوح ودونما ارتباك، لا، بل بدت مستمتعة بالوضع، ومثل هذه القدرات العالية على التكيف مع المواقف تدل على أنها جديرة بمنصب مسؤولة الفصل.

- اعتقدت أنني لن أستطيع لقاءكَ مرة ثانية.

- وهل كنت تفضلين ذلك؟

- كلا، أنا سعيدة بلقائك، فالمرة السابقة كانت ممتعة جدًا.

هزَّ القط شاربيه باهتمام بالغ لتلك الكلمات الصادقة، ولكنه اتجه بعينيه إلى رينتارو على الفور.

- فتاة جذابة ومرنة، تختلف تمامًا عن شاب محافظ، لديه منطق ناضج ولا ينتفع به إطلاقًا.

- لا أنفي ذلك، ولكن هذا لا يسمح لك باقتحام المكان هكذا. في كل مرة تظهر من الجانب الآخر للجدار تسبّب لي الفزع.

- لا ضرورة للقلق، فهذه هي المرة الأخيرة.

أجاب القط بلا مبالاة.

- الأخيرة؟

أجل...أجاب القط العتابي، ثم أخذ نفسًا عميقًا:

- أريد منك المساعدة مرة أخرى فقط.

صوت القط الأجش تردد في أرجاء المكتبة.

*

- هذه هي المتاهة الأخيرة.

قال القط بصوت مكتوم المشاعر وهو يمشي في ممر بلا نهاية:

تتالى رفوف الكتب المهيبة على الجانبين، ويمشي رينتارو وسايو صامتين خلفه في ممر عجيب تُضيئه مصابيح على مسافات متساوية.

- أشكرك، لقد أطلقت سراح كثير من الكتب حتى الآن.

- تحية تثير الريبة.

هادئًا احتفظ رينتارو بمسافة وهو يرد على كلمات القط التي لا تتوافق مع لسانه السليط.

- وكأنك تستعد للفراق.

- لا أنكر وجود مثل هذا المعنى.

أغلظ رينتارو من لهجته وكأنه يقاوم إلى حدٍّ ما إجابة القط الملتوية.

- عندما ظهرتَ لي فجأة أصابتني دهشة، ولكن حتى عند رحيلك تغادر بحوار عقيم.

- أمر لا مفر منه، فالقط كائن يتصرف دون مراعاة لظروف البشر.

- ولكن القطط التي أعرفها على الأقل لا تبخ ألسنتها السليطة السموم مثلك.

- يالك من ضيق الأفق، أمثالي لا حصر لهم في جميع أنحاء العالم.

ابتسم رينتارو ابتسامة مصطنعة وهو يرد على القط العتابي الذي قالها دونما حتى التفاتة.

- سأشعر بالأسف لحرماني من سماع كلامك العنيف هذا.

- لا تستعجل، ولندع هذا الحديث إلى ما بعد تخطي هذه المتاهة.

توقف القط العتابي فجأة والتفت إلى الخلف بعينيه نحو رينتارو، كانت عيناه جادتين جدًا على غير العادة.

- صاحب المتاهة الثالثة صعب المراس قليلًا.

تحولت عينا القط من رينتارو إلى سايو، قطبت سايو حاجبيها لتلك النظرات المفاجئة بعد أن كانت تستمع بحوارهما صامتة.

- ماذا؟

- الخصم الأخير يختلف قليلًا عن الاثنين السابقين.

- أتريدني أن أعود إلى الخطورة؟

تفادى القط الإجابة الصريحة، ومسح وجهه بحركة كأنه يضن بجهوده:

- إنه خصم لا يمكن التنبؤ بأفعاله، وعلى الأرجح أن الوريث سيقلق عليكِ أكثر من ذي قبل.

- أي: إنك في صف ناتسوكي هذه المرة.

- لا، الأمر محتلف.

- مختلف؟

- لم أتنبأ بوجودكِ قط، ولا أظنها محض مصادفة.

عند هذا الكلام الغريب، نظر رينتارو وسايو إلى بعضيهما.

- على الأرجح، لوجودك هنا معنى، ولا أرغب في عودتك.

- مهلًا...

كان رينتارو هو الذي بدأ يتوتر.

ولكن القط العتابي لم يعبأ به، وانحنى لسايو فجأة.

- إذا حدث لي مكروهٌ ما، فأرجو منك العناية بالوريث.

دوّى صوت قوي بالرغم من أنه أجش. سايو التزمت

الصمت لهنيهات، ثم أجابت أخيرًا بابتسامة أكثر جمالًا وجاذبية من المعتاد.

- تُرى هل تعتمد عليَّ؟

- الوريث ليس رجلًا غبيًّا، ولكن افتقاره إلى الشجاعة في اللحظة الحاسمة يجعله مترددًا وليس جديرًا بالثقة.

- أوافقك الرأي.

- مهلًا، أرجو منكما تقدير وجودي على الأقل...

أخيرًا تدخل رينتارو بينهما:

- لستِ مضطرة لمرافقتي إلى مصير مجهول يا يوزوكي.

- ربما لو قيل لي ذلك في السابق كنت سأرجع بالتأكيد، ولكن الآن لن أرضى أن يحدث لك مكروه يا ناتسوكي.

صمت رينتارو على هذا الكلام الذي لم يتوقعه، وعندما رأت سايو ذلك غمزته بإحدى عينيها لمشاكسته.

- عليك أن ترشح لي كتابًا جديدًا للقراءة، أليس كذلك؟

ضحك القط العتابي ضحكة خافتة لهذا الصوت المشرق:

- عظيم.

نطق ذلك بسرعة، ثم استدار إلى الخلف، وأخذ يمشي من جديد، وتبعته سايو بدون تردد.

لم يكن أمام رينتارو الذي تُرك وحيدًا أي خيار آخر،

فأسرع للحاق بهما. وسرعان ما لفّتِ المكان أشعةٌ بيضاء باهرة.

*

اختفت الأشعة، فبدا منظر شديد الغرابة.

أول ما رأته العيون ممرٌّ ضيق وطويل ومنحن انحناءً خفيفًا، عرضه عرضُ الممر الحالي، وفيما عدا ذلك يختلف كل الاختلاف.

أولًا، تمتد فوق الرؤوس سماء زرقاء صافية، أي: إنه ممر خارجي يختلف عن الممر الداخلي المظلم بمصابيحه المتواصلةعلى مسافات متساوية. وعلى الجانبين يمتد جداران يفوقان بكثير قامة رينتارو، ولذا لا يستطيع رؤية ما يحيط بالممر، غير أنه وبفضل ضوء الشَّمس المشرقة، يتملكه شعورعارم بالحرية، ولكن مهما كان الشعور بالحرية، فعدم رؤية ما حولهم من مناظر لا يُريح القلب.

- ما... ما هذا؟، كانت سايو هي أول من باشر الكلام.

كان صوتها الحاد العالي يشبه الصراخ، انتابت رينتارو المشاعر نفسها، ولكنه لم يُصرح بها.

بني الجداران الشامخان على جانبي الممر من كتب وُضعت فوق بعضها بعضا بشكل عشوائي.

ومع أنها وُضعت فوق بعضها البعض، إلا أنها لم تكن مطلقًا في حالة مرتبة أو منظمة، مُزّق بعضها، وسُحق البعض الآخر، ولم تحتفظ كتب الأسفل بقوامها ككتب؛ بسبب الضغط

الذي عليها من الأعلى. يبدو أنها ظلت تُكدّس فوق بعضها بعضًا دون اهتمام، إلى أن بلغت هذا الارتفاع المهول.

منظر لا يُسعد أي شخص يراه، حتى وإن كان لا يحب الكتب مثل رينتارو.

- فلنذهب!

أعاد صوت القط العتابي الأجش الاثنين إلى وعيهما بتلك الكلمة.

لم يكن هناك ما يقال، كان الصمت هو التعبير الوحيد عمّا يشعران به.

نظر رينتارو وسايو إلى بعضهما دون اتفاق، ثم أومأ كل منهما برأسه للآخر وشرعا في المشي.

الممر تسوده السكينة، ويتتابع في منحنيات غير منتظمة، وسرعان ما ينعدم الإحساس بالاتجاهات لعدم القدرة على رؤية المكان بأكمله. كان شعورهما يشبه من يسير مرغمًا وسط أعمال رديئة جدًا من الفن الحديث، وكأن المنظر الكئيب الذي يلفه جو من الانحطاط غير كافٍ، فزادته أشعة الشَّمس المشرقة غير المناسبة، شعورًا بالعدمية والاختناق.

ولم تتضح المسافة التي قطعوها، أطويلة أو قصيرة، عندما ظهر أمامهم جدار رمادي عملاق، فأطلقت سايو صيحة ارتياح:

- نهاية الطَّريق؟

توقف رينتارو ورفع رأسه نحو الجدار:

- هل هذا هو هدفنا؟

تراصت نوافذ مربعة كثير العدد فوق سطح الجدار الرمادي الذي يسد عليهم الطَّريق. الجدار الضخم الممتلئ بالنوافذ يتلاشى في الضباب الأبيض العالي. والجداران الجانبيان يحجبان الرؤية، فلا يمكنهم إدراك كنهه، ولكن يبدو أن الممر ينتهي بمبانٍ تشبه ناطحات سحاب عملاقة.

تابعوا السير خطوات قليلة أخرى، ليجدوا في النهاية بوابة زجاجية كبيرة أسفل المبنى الرمادي العملاق كأنها تعلن عن نفسها بلوحة كُتب أعلاها كلمة مدخل «entrance» بعناية.

- يعني: تفضلوا بالدخول.

لم يتردد القط في السير مقتربًا من البوابة دونما أي انبهار.

وحين باتوا عندها مباشرة انفتحت يمينًا وشمالًا مستقبلة رينتارو ورفيقيه دونما صوت، وفي الوقت ذاته لا يعرف من أين ظهرت فتاة ترتدي بدلة بنفسجية اللون انحنت لتحيتهم.

- مرحبًا بكم في أفضل دار للنشر في العالم، «دار النشر الأولى في العالم».

كان صوتها آليًّا تمامًا وابتسامتها آلية بالكامل، أضف إلى أن قولها: إن شركتها هي «الأفضل في العالم» يحتاج إلى أعصاب باردة جدًا.

- هل تسمحون بالسُّؤال عن أسمائكم وعن أسباب الزيارة؟

رافق صوتها مرحٌ بلا معنى، فأُخذ رينتارو على حين غرة، ولكنه مع ذلك حاول أن يتحدث:

- ثمة كتب مكدسة خارج المبنى مثل الجبال، ما تلك الكتب؟

- خارج المبنى؟ لوت الفتاة عنقها ناحية الشِمال بنحو 30 درجة وهي بالابتسامة نفسها. رينتارو مقتنع أن هذا هو ما يقال عنه أدب القرود، ولكن لا وقت لديه للانبهار.

- أجل خارج المبنى. كتب عوملت بقسوة فظيعة...

- حقًّا؟ هل مشيتم أيها السادة خارج المبنى؟ هذا أمر في منتهى الخطورة. لحُسن الحظ أنكم لم تصابوا بجراح.

وضعت الفتاة يدها على صدرها، وقطبت حاجبيها، وأظهرت على وجهها ملامح القلق الشديد.

بدأ التعب يصل إلى حدوده القصوى إلى درجة لا يمكن وصفها، تنهّد رينتارو حين وصل إلى أذنيه صوت القط الهادئ.

- توقف أيها الوريث! من الواضح أن تلك الفتاة ليست هدفنا.

- يبدو كذلك...

هز رينتارو كتفيه بلا مبالاة، فسألتْ الفتاة مرة أخرى:

- هل تسمحون بالسُّؤال عن أسمائكم وأسباب الزيارة؟

كان سؤالًا رتيبًا، ومع ذلك فكر رينتارو قليلًا، ثم أجاب.

- اسمي: "رينتارو ناتسوكي".... أسباب الزيارة مقابلة رئيس الشركة.

انحنت الفتاة انحناءة مؤدبة، ثم اقتربت من مكتب استقبال جوارها مباشرة، ورفعت سماعة الهاتف، وتحدثت إلى شخصٍ ما، ثم عادت على الفور وانحنت مرة أخرى.

- آسفة لانتظاركم، سيقابلكم رئيس الشركة.

- الآن، على الفور؟

- طبعًا، فلقد أتيتكم خصيصًا من أجل ذلك.

ثم بدأت تتحرك دون أن تنتظر ردًا.

لا يدري هل هذا جيد أم سيئ؟ طبعًا لم يبحث رينتارو عن نيتها؟ أو ربما لا نية لها منذ البداية؟ فقد تحرر من تلك الحوارات عديمة الفائدة.

- لا بد أن رئيس شركة متفتح جدًا إذ يقابل زوارًا أتوا لزيارته فجأة دون موعد.

- ما هذا الهراء الذي تقوله؟ اقتربت منه سايو وهمست في أذنه:

- رئيس شركة، يعني رجلًا سيئ الخلق، أصلع الرأس بدين الجسم، احترس من التهاون معه وإلا ستلقى مصيرًا مؤلمًا.

على أي حال وبالرغم من الانزعاج من نظرة سايو المتحيزة، مشى رينتارو خلف الفتاة.

قادتهم الفتاة في ممر مستقيم بلا أي زينة. فُرشت الأرضية تحت أقدامهم بغرانيت أسود مصقول عكس صورهم كأنه مرآة. في منتصف الممر الأسود الفاحم حيث لا توجد ذرة تراب واحدة، فُرشت سجادة فاقعة الحمرة كأنها طريق آخر تسير فيه الفتاة بخطوات سريعة.

بعد أن مشوا مدة قصيرة توقفت الفتاة التي تتقدمهم، والتفتت إلى الخلف وقالت:

- من هنا يتغير المرشد.

عند مقدمة السجادة الحمراء يقف رجل ببدلة سوداء.

انحنى الرجل لرينتارو انحناءة طويلة مبالغ في تأدبها، ثم قال بصوت رتيب:

- من هنا ممنوع حمل الأمتعة.

لم يكن رينتارو ورفيقياه يحملون أي أمتعة، قال الرجل ذلك، واستدار إلى الخلف، وراح يمشي ببساطة دون أن يتأكد من التزامهم. نظر رينتارو وسايو إلى بعضهما، ثم مشيا خلفه.

هذه المرة، وبعد سيرهم مسافة، كان يقف عند مقدمة السجادة رجل ببدلة زرقاء. فقط لون البدلة هو الذي اختلف، أما باقي الحركات، فكانت الحركات السابقة نفسها. انحنى انحناءة عميقة جدًّا وقال دون أن يُحرّك رمشًا واحدًا:

- من هنا بلا أي سلطات أو ألقاب.

ثمّ استدار إلى الخلف مثل رجل البدلة السوداء، وبدأ يمشي ببساطة.

- هل هذا نوع من المزاح؟

- ليته يعرف المزاح.

لم تكن إجابة القط العتابي مُريحة للنفس.

مشوا خلف رجل البدلة الزرقاء، ووصلوا أخيرًا إلى رجل ببدلة صفراء ينتظرهم:

- من هنا بلا عداوة أو بغضاء.

لم تعد لدى رينتارو قدرة حتى على النقد.

مشوا خلف رجل البدلة الصفراء، وفجأة انتهى الممر، فوصلوا إلى قاعة واسعة مفتوحة الأجواء.

أطلق رينتارو وسايو في الوقت ذاته صوتًا خافتًا من الدهشة.

قاعة أسطوانية واسعة المساحة والسقف عالٍ جدًّا فوق الرؤوس إلى حدٍّ أنه لا يُرى، وعندما نظروا حولهم وجدوا سلالم صاعدة موزعة بعشوائية هنا وهناك داخل القاعة. تتقاطع وتتشابك تلك السلالم مع بعضها في الهواء على طبقات عدة لتكوّن ممرات جوية تشبه بيت العنكبوت.

شعروا أنهم يتأملون هيكلًا داخليًّا لسفينة فضاء دقيقة الصنع.

- شكرًا لكم على هذا العناء.

قال لهم رجل البدلة الصفراء وهو يشير إلى الأمام.

امتدت السجادة الحمراء حتى منتصف القاعة، حيث يؤدي مصعد عملاق إلى القمة في خط مستقيم. وجوار المصعد يقف رجل ببدلة حمراء اقترب من رينتارو ومن معه، وكما هي العادة انحنى انحناءة مؤدبة مبالغ فيه جدًّا. وفي اللحظة ذاتها فُتحت أبواب المصعد، فظهرت مساحة مربعة الشكل محاطة بجدران زجاجية.

- تفضلوا بالصعود. رئيس الشركة في انتظاركم.

حثهم رجل البدلة الحمراء بصوته الرتيب على الصعود، فتحركوا ليركبوا المصعد، غير أنه اقترب من القط العتابي وانحنى انحناءة مؤدبة.

- آسف جدًا، من هنا لا يمكن اصطحاب الكلاب أوالقطط.

دوّى صوت بارد يشبه صوت تسجيل في أرجاء القاعة.

دُهش كل من رينتارو وسايو، ولكن القط العتابي بالمقابل لم يرتبك، ليس هذا فقط، بل أصمت رينتارو الذي حاول الاعتراض.

- ألم أقلها لك: الخصم هذه المرة متعب؟

وهنا صمت رينتارو، وتحول القط العتابي بنظره إلى سايو.

- وجودكِ صنع فارقًا، لقد كنتُ قلقًا من ذهاب هذا الوريث الذي لا يُعتمد عليه بمفرده.

- ... ربما هذا هو سبب مجيئي.

ابتسمت سايو ابتسامة مصطنعة، وبدت في عيني القط ما يشبه ابتسامة خافتة جدًا، ثم تدخل صوت رجل البدلة الحمراء بقوة خانقة لا تسمح بالاعتراض ليوقف هذا الحوار الخافت قائلًا:

- اضغط على زر "الطابق الأعلى".

زر الطابق الأعلى!! ولكن ليس في المصعد إلا زر واحد، زر واحد فقط وسط لوحة كُتب عليها: «أعلى طابق»، بمعنى أن:

- زر العودة غير موجود!

- هل يعني ذلك أن نحسم الصراع ونعود بقوانا الذاتية؟

تنهّد رينتارو تنهيدة خافتة، ثم نظر إلى القط العتابي خارج المصعد.

وبعد لحظة صمت سريعة:

- سأمضي يا صاحبي!

- أعتمدُ عليك أيها الوريث.

وكأن صوت القط الصامد شجعه، ضغط رينتارو على زر الطابق الأعلى. فأغلق الباب بسرعة، ثم تحرك المصعد باهتزاز خفيف.

*

انطلق المصعد فورًا داخل الممرات الجوية المعلقة في الهواء تاركًا رجل البدلة الحمراء والقط العتابي تحت العيون، ثم زاد من سرعته صاعدًا تركيبًا هندسيًّا ثلاثي الأبعاد، حيث تتقاطع خطوط مستقيمة لا نهائية في الجهات الأربع.

لا أثر لبشر فوق تلك السلالم التي بنيت بالطول والعرض على مرمى البصر، وبدت كأنها لوحة خداع بصري عملاقة.

- لحُسن الحظ أنه لم يأمرنا بصعود السلالم، صعود هذا العدد من السلالم مرهق ولا شك.

همس رينتارو أخيرًا.

ابتسمت سايو؛ لأنها أدركت أن ذلك المزاح هو أقصى ما في جعبة رينتارو لطرد الصمت الكئيب.

- الجو موحش بشكل مدهش.

- حتى وإن كان القط العتابي سليط اللسان ومغرورًا بلا سبب، فوجوده يروّح عن النفس. كما يقول المثل: الأشجار الذابلة تعطي حيوية للجبال.

- الأشجار الذابلة سوف تغضب عليك!

تبادل الاثنان النظر، ثم ضحكا معًا ضحكة خافتة.

خارج المصعد، بدأ الظلام يحل بالتدريج، ومع أنهما داخل مبنىً، إلَّا أنَّ الشَّمس بدأت بالغروب، غرق المجسم الهندسي المعقد خارج النوافذ في الظلام، فلم يعد رينتارو يعرف إذا ما كان المصعد يتابع صعوده أم توقف عن الصعود.

- في البداية كنت أعتقد أنه من المستحسن عدم العودة.

همس رينتارو دونما وعي تقريبًا

نظرت سايو إليه في صمت.

- عندما صحبني ذلك القط العجيب أول مرة، قلت لنفسي إذا كان حلمًا، فلا أريد الاستيقاظ منه، وإذا لم يكن حلمًا، فلا مانع عندي من عدم العودة، كما كنت أعتقد.

وضع رينتارو يده على نظارته ليعدل من موضعها.

- ولكنني منذ ظهور ذلك القط بدأت أفكر في كثير من الأمور، وأخذت أشعر بالاختلاف قليلًا فيما أراه من مشاهد.

- أعتقد أنه سيكون جميلًا أن تتحول شخصيتك من اللامبالاة إلى الحالة الإيجابية.

ابتسم رينتارو ابتسامة مصطنعة لكلمات سايو المباشرة:

- أعترفُ أن شخصيتي سلبية، ولكن رغبتي في عدم تعريض مسؤولة الفصل للخطر حقيقية.

- أحيانًا، يبدو كلامك كأنه غزل، هل هو تأثير قراءة كثير من الكتب؟

- سأعدل الصياغة، أعتذر عن توريطكِ في هذه الأحداث العجيبة.

- اعتذار لا داعي له؛ لأنني مستمتعة جدًا، ومن المثير أيضًا التعرف على جانب مدهش في شخصيتك.

- جانب مدهش؟

- لا شيء! لا شيء!

هربت من الإجابة بمهارة، ثم ضحكت هذه المرة بصوتٍ عالٍ.

مرت بذهنها صورة رينتارو وهو يتناقش بجسارة مع الباحث بالمعطف الأبيض في مركز الأبحاث العجيب تحت الأرض، صورة تركت لديها انطباعًا شديدًا، ولكن رينتارو لا يعلم ذلك أبدًا.

أوشك رينتارو أن يسألها مجددًا، ولكن المصعد خفف سرعته فجأة، ثم توقف في لمح البصر.

فُتح الباب دونما صوت، فظهرت مساحة مظلمة، لم يعرف حجم تلك المساحة بسبب العتمة، لكن في المنتصف فُرشت سجادة فاقعة الاحمرار تمتد مستيقمة نحو الأمام كأنها تشير إلى اتجاه الطَّريق. في نهايتها بوابة خشبية ثقيلة وسميكة، حُفرت عليها تصاميم هندسية.

بوابة كأنَّ لها مغزى مهمًّا، فتُولد شعورًا بالضغط النفسي.

- هيا، رجاءً يا ناتسوكي!

- تريدين مني أن....

- أي: كن بخير، ولا تخف.

كانت معنويات رينتارو في الحضيض، فتحدثت إليه سايو بصوت راسخ.

- أنت أشجع مما تظن يا ناتسوكي. لا حاجة مطلقًا للخوف لاسيما فيما يخص الكتب. حتى ذلك المتقدم أكيبا يُكنُّ لك الاحترام.

ارتبك رينتارو لظهور شخصية لم تكن في حسبانه.

- المتقدم أكيبا؟

- يمتدحك في المدرسة كثيرًا، لا تروق لي سطحيته بعض الشي، ولكنه لا يكذب.

كانت كلمات سايو منعشة كسماء الشتاء الصافية.

انتشر الدفء ببطء في أعماق رينتارو. أحاسيس ربما يصعب وصفها بالشجاعة، ولكنها آتية من مكان الشجاعة نفسه.

فجأة ربّتت سايو بيدها البيضاء على ظهر رينتارو.

- أعدني إلى البيت بأمان يا ناتسوكي!

وطئت قدماه السجادة اللينة لحظةَ التربيت على ظهره.

سيكون كذابًا لو قال: إنه لا يشعر بالوحشة.

ولكنه اتجه ببصره إلى الأمام.

لسببٍ ما مجهول شعر أن هذا هو الوقت للتقدم إلى الأمام.

أطلق رينتارو نفسًا كبيرًا، ثم راح يمشي باستقامة نحو الأمام.

*

- أنت حقًّا تحب الكتب.

دوّى صوت ريوتا أكيبا الصادح في أذني رينتارو.

كان رينتارو قد التحق للتو بالمدرسة الثانوية، ولم يكن قد مر وقت طويل على معرفته بهذا الطالب المتفوق الذي يتقدمه بصف.

كان دائمًا يضع مسافة بينه وبين هذا الطالب المتقدم، حين تردد هذا الأخير على مكتبة ناتسوكي من حين إلى آخر.

كانت لهذا الطالب مواهب غير عادية، فهو نجم فريق كرة السلة في المدرسة، وعضو ناشط في اتحاد الطلبة، فضلًا عن تفوقه الدراسي، كان شخصًا من عالم آخر مختلف تمامًا عن عالم رينتارو الذي يعيش في مكتبة جده للكتب القديمة منعزلًا عن العالم.

مرة واحدة فقط، سأله بجدية عن سبب ذهابه إلى مكتبة ناتسوكي لاسيما وأنه طالب نابغ.

- طبعًا، السبب هو وجود كتب جيدة.

أجاب أكيبا كأنه يقول: ألآن وبعد كل هذا؟

ملامح التعجب على وجه رينتارو أصابت أكيبا بخيبة أمل.

- ألا تعرف عظمة هذه المكتبة وأنت تعيش داخلها؟! لا بد أن جدك مصاب بخيبة أمل أيضًا.

قال أكيبا ذلك، ثم راح يقص عليه بحماس شديد جاذبية وسحر مكتبة ناتسوكي.

- هنا تتجمع الكتب التي تُوصف بأنها أعظم مؤلفات العالم، وكلها أعمال متميزة تخطت السنوات الطويلة جدًا لتصل إلينا، ولكن حتى مثل هذه الأعمال بدأت تختفي تدريجيًا من المكتبات العادية المنتشرة في المدن وبات الحصول عليها بشق الأنفس. ولكن من يجيء إلى هنا على الأغلب سيجدها.

ثم طرق بيده على الرف الذي أمامه طرقات خفيفة كأنه يطرق بابًا.

- أتفهم قليلًا عدم اهتمام المكتبات بأعمال آندرسون وجونسون، ومؤخرًا حتى كافكا وكامو لم تعد تُطبع بعض أعمالهما، بل حتى شكسبير لا تجد أعماله كاملة إلا في أقل القليل من المكتبات.

وحين سأله لماذا؟ كانت الإجابة في منتهى السهولة.

- لأنَّها لا تُباع.

رد قصير إلى درجة الإحباط.

- المكتبات ليست مؤسسات خيريّة، ولن تستمر طالما لا تُباع الكتب، ولذا تختفي بالتدريج الكتب التي لا تُباع، في مثل هذا الوقت تحتوي مكتبة جدك تشكيلة رائعة، كأنها تتعمد وضع الكتب التي لا تباع في الواجهة. لعلها تستطيع ذلك؛ لأنها مكتبة كتب قديمة. على أي حال، ما لم يكن الكتاب من نوادر النوادر، فإنك تستطيع الوصول إلى الأعمال المتميزة هنا.

قال ذلك وهو يطرق بيده على رف الكتب الخشبي.

ثم أضاف فجأة ضاحكًا بخبث وهو ينظر إلى رينتارو:

- وثمة في هذه المكتبة مرشد متمرس يعرف بدقة كل هذا المخزون العملاق الذي فيها بالرغم من صعوبته وتعقيده.

- مرشد؟

- هل «أدولف» لكونستان هنا؟ لقد قرأت في الإنترنت أنها رواية مشوقة، ولكنني لم أعثر عليها في أي مكان.

طبعًا، هزّ رينتارو رأسه، ثم أخرج رواية قديمة متوسطة الحجم من أحد الرفوف الداخلية البعيدة قليلًا.

- يشتهر بنجامان كونستان بأسلوب التحليل النفسي المتفرد في هذا العمل. أعتقد أنه ألفها في فرنسا بداية القرن التاسع عشر.

لم يمد يده مباشرة لتناول الكتاب، بل ظل أكيبا يستمتع بالمقارنة بين الكتب ووجه رينتارو.

وفي النهاية انفجر ضاحكًا كأنه لم يعد يتحمل كتمان الضحك أكثر من ذلك.

- أنت حقًا تحب الكتب.

كانت ضحكات مبتهجة لا تتناسب مع مكتبة ناتسوكي.

*

ما إن فُتح الباب العملاق، حتى دوّى صوت جهوري داخل الغرفة:

- أهلا بكما في «دار النشر الأولى في العالم»

مساحة كبيرة تقترب من مساحة فصل دراسي في المدرسة.

تتدلى من السقف ثريا عملاقة، والأرض فُرشت بسجادة فخمة أخفت تمامًا وقع أقدامهما، وعلى الجدران في الجهات الأربع أسدلت ستائر بلون أحمر فاقع.

وفي أعمق مكان من تلك المساحة الفاخرة التي بُذلت فيها جهود بلا جدوى لجعلها تفوح بعبير راق وفاخر، وُضع مكتب كبير يصدر بريقًا متلألئًا، وخلفه رجل في الجهة المقابلة، كان أنيقًا نحيف الجسم في بداية الشيخوخة بشعر رأس ناصع البياض ومثير للإعجاب.

يجلس باسترخاء على كرسي أسود مرتديًا بدلة من ثلاث قطع، ويشبك أصابع يديه فوق المكتب وينظر إليهما بعينين هادئتين.

- لم يكن ما توقعته. رئيس شركة ليس أصلعًا ولا بدينًا! أمر عجيب!

همست سايو خفية:

- ربما يكون مديرًا متوسط الدرجة عانى كثيرًا وبشكل غير مألوف، ويتظاهر بأنه رئيس الشركة.

ابتسم رينتارو ابتسامة مريرة لهذا التقييم المتحيز تحيزًا كاملًا، كان شديد الانبهار بشخصية سايو المتبجحة والمناقضة له تمامًا.

رفع الرجل الجالس على المكتب يده اليمنى بالتحية.

ـ تفضلا بالدخول. أنا رئيس هذه الشركة.

أدار رئيس الشركة يده المرفوعة وأشار إلى الأريكة التى أمامه، طالبًا منهما الجلوس، لم تحثهما الأريكة الفاخرة ذات الفراش الوثير على الجلوس. ولم يهتم رئيس الشركة بعدم جلوسهما.

ـ أشكركما على هذه الزيارة الخاصة، من المؤكد أنَّ الوصول إلى هنا أرهقكما، فالمسافة بعيدة جدًا، والحراسة مشددة.

- مُنع صديقنا العزيز من الدخول.

- آه!

ضيّق رئيس الشركة عينيه عند حاجبيه الأبيضين.

- آسف، فأنا أكره القطط.

- تحسُّ بالضعف أمامها؟

- ليس ضعفًا، بل كراهية، وبخاصة القطط الذكية.

ابتسم ابتسامة رقيقة وهو يلفظ تلك الكلمات وكأنها نصل حاد لمع لمعانا بشكل مفاجئ. تسمّر رينتارو في مكانه دونما وعي، ولم يبدُ على مظهر رئيس الشركة الخارجي أي تغيير يمكن الاستشفاف منه أنه نتبه إلى ذلك أم لم ينتبه.

- أنا آسف حقًا، كان لابد من منعه من الدخول، بالرغم

من أن ذلك ليس سلوكًا مهذبًا نحو ضيف أتى خصيصًا لزيارتي من مكتبة ناتسوكي.

- هل تعرف مكتبة ناتسوكي؟

- طبعًا.

واصل رئيس الشركة كلامه وهو يمسد ذقنه الرفيعة بيده.

- مكتبة بائسة متخلفة عن العصر يكدس صاحبها جبالًا من الكتب العصية على الفهم التي لا رواج لها إرضاء لنفسه فقط، أنا في الحقيقة أغبطه على لامبالاته وعدم شعوره بـ: الواجب، والمسؤولية، والضغط النفسي.

ابتسم رئيس الشركة ابتسامة عريضة.

كان صوته هجومًا مفاجئًا وإعلان حرب.

ارتبكت سايو لتلك المفاجأة، ولكن رينتارو لم يكن يبالي.

فمنذ البداية شعر بارتباك مريب خلف ابتسامة الرجل، ومنذ اللحظة التي منع فيها الخصم القط العتابي من الدخول، توقع أنه خصم رديء.

وعندَ تأهبِ رينتارو للرد، واصل رئيس الشركة كلامه بهدوء تام على الأقل في النبرة والملامح:

- كان لديَّ اهتمام عميق جدًا باستقبال ضيف من تلك المكتبة الغريبة لأرى إلى أي مدى سوف يُسمعني الأكاذيب؟

- من الأفضل أن تعيد النظر في ديكور الغرفة قليلًا.

يبدو أن الرجل عجز عن الرد الفوري على كلمات رينتارو المفاجئة.

- ديكور الغرفة؟

- التباهي أمام الزوار بمثل هذه الثريا البراقة التي تسبب الصداع، وفرش تلك السجادة الخانقة، كلّ هذا لا ينم إلا عن ذوق فاسد، أقترح عليك تغييره بأسرع وقت، إذا كنت لا تقصد المزاح.

أبقى رئيس الشركة على ابتسامته وحرك حاجبيه الأبيضين قليلاً.

ولكن كلمات رينتارو لم تتوقف.

- آسف لهذا الكلام غير المهذب، لكن جدي كان يقول من الأفضل إبلاغ صاحب العمل الشاذ بأنه شاذ، حتى لو كان العداء هو النتيجة، فالمنظر هنا شنيع، ولا أحتمل الصبر على رؤيته.

- ناتسوكي! مهلًا...

صاحت سايو بعدما ارتبكت من كلامه، فتوقف رينتارو أخيرًا عن الحديث.

حتى رينتارو نفسه عندما رجع إلى رشده ندم على هذا التأهب القبيح للعراك.

كان يعرف مهارته في تقديم الحجج المنطقية بالتدريج حتى وإن كانت متواضعة وغير مرتبة، وأن مثل هذا الهجوم لا

يناسب طبيعته، فطريقته بناءة وهادئة أكثر. مع علمه بذلك، هاجم رينتارو هجومًا صريحًا. والسبب واضح، فالرجل لم يسخر منه شخصيًا، بل سخر من مكتبة ناتسوكي.

رئيس الشركة المشارف على الشيخوخة، بقي هادئًا لا يُحرك ساكنًا، ثم تنهد أخيرًا تنهيدة خافتة.

- يبدو أنني أخطأت التقدير، لم أكن أعلم أن في مكتبة ناتسوكي فتى قوي العزيمة إلى هذه الدرجة.

- لا أعرف شيئًا عن قوة العزيمة، أنا أحب الكتب فقط.

- نعم، نعم.

أومأ رئيس الشركة إيماءة سخية.

ثم فكر قليلًا وهز عنقه قليلًا يمينًا وشمالًا.

- تحب الكتب؟ هذا أمر مزعج.

قال ذلك لنفسه تقريبًا، ثم مد ذراعه الرفيعة وضغط على زر كبير فوق المكتب، وعلى الفور صدر صوت آلي غليظ، فأزيحت ببطء الستائر الحمراء الفاقعة التي تغطي الجدران.

باستثناء الجدار الخلفي الذي دخلا منه، تحركت ستائر الجدران الثلاثة الأخرى، فتدفق الضوء من الخارج فجأة إلى الغرفة.

في البداية ضيق رينتارو عينيه المنبهرتين من شدة الضوء، فلم يعرف ماذا يحدث بدقة.

يبدو أنَّ الغرفة، حيث هما، تقع في ناطحة سحاب والجدران الثلاثة عبارة عن نوافذ، وتُرى من النوافذ ناطحات سحاب مشابهة تحيط بهم. ومن نوافذ تلك المباني تتدفق أشياء بيضاء تدفقًا مهولًا وتسقط متسارعة على الأرض وكأنها ثلوج.

وأخيرًا، عندما اعتادت العين على الضوء سمع رينتارو صرخة سايو القصيرة الخافتة «آه!» وفي الوقت ذاته فهم ما يحدث خارج النافذة فبُهت، وفقد النطق هنيهة.

كان ما يتطاير كالثلوج متناثرًا في الهواء، كتبًا. تُلقى من النوافذ الكثيرة، فتتراقص في الهواء، ثم تنزل ساقطة نحو الأرض البعيدة.

تتناثر فوق الأرض كتب لا حصر لها، تُرمى من نوافذ المباني، فتذروها الرياح يمينًا وشَمالًا، وبدت المباني كأنها داخل عاصفة ثلجية، إذا كان ذلكَ كله كتبًا، فمن المؤكد أن العدد يفوق المعقول.

ليس في الهواء فقط، لا، بل إذا نظرنا إلى أسفل المبنى، فإن المشهد لا يمكن تصديقه. غدتِ الأرض، على مدى البصر، سهولًا شاسعة من الكتب المتكدسة بالآلاف وعشرات الآلاف.

وقف رينتارو وسايو مذهولين والكتب تتساقط أمام عيونهما قرب النافذة إلى حد أن أيديهما تكاد أن تلمسها، أي: إن الكتب تُلقى كذلك من المبنى ذاته حيث هما موجودان.

- هل تعرف ما هذا؟

سأله رئيس الشركة وعلى وجهه ابتسامة هادئة.

- لا أدري، ولكن من المؤكد أنه مشهد فظيع.

- هذا هو واقع العالم اليوم.

لا يجد رينتارو ما يقوله.

- هذه المباني هي شركات نشرِ هذا العصر الكبرى، تُصدر كل يوم كتبًا بعدد النجوم، وتلقي بها فوق هذه الأرض الشاسعة.

- تلقي أوراقًا لا معنى لها، مجرد نفايات لا غير.

- هذه هي الحقيقة...

أجاب رئيس الشركة ببساطة:

- هذه أكبر شركات النشر، تصدر كل يوم جبالًا من الكتب وتبيعها، ثم تستخدم الأرباح لتصدر كتبًا أكثر، ثم تبيعها. ثم تبيع أكثر، وتبيع أكثر، فتزداد أرباحها أكثر.

رفرفت يد رئيس الشركة المزينة بخاتم براق، مقلدة الكتب التي تسقط خارج النافذة.

بذل رينتارو قصارى جهده ليفهم الوضع، ولكنها لم تكن مهمة سهلة.

ثم تذكر فجأة، وهم في الطَّريق إلى هذا المبنى، مارأوه من آلاف الكتب المكدسة بشكل فوضوي، هذا المنظر الغريب،

ومنظر آلاف الكتب المرمية أمام عينيه، وصوت الرجل الواثق من نفسه، كل ذلك تشابك في داخله، وأخذ يجره شيئًا فشيئًا إلى مستنقع الحيرة والإحراج. ما قالته فتاة الاستقبال من أن المشي في الخارج أمر خطير، يتذكره الآن وهو بطعم مضحك وغريب.

- إن كان مزاحًا، فهو لا يُضحك. الكتب لا تُرمى في الهواء، بل تُنشر لتُقرأ.

- يا لك من ساذج!

تناول رئيس الشركة كتابًا من على مكتبه بشكل عشوائي، ثم أكمل:

- الكتب مادة للاستهلاك، وعملي هو التفكير في كيفية استهلاك تلك المادة بكفاءة عالية، لا يمكنك القيام بهذا العمل إذا قلت: إنك تحب الكتب. على أي حال...

أدار رئيس الشركة فجأة مقعده الأسود، وفتح النافذة التي خلفه مباشرة، ثم رمى الكتاب بسهولة كبيرة، فُتحت صفحات الكتاب لحظة، ثم تراقص خارج النافذة، واختفى عن الأنظار في اللحظة التالية.

- هذا هو عملي.

فجأة فهم رينتارو.

فهم معنى كلمات القط العتابي: «الرجل الأخير يختلف عن الاثنين السابقين».

فالرجلان اللذان قابلهما في المتاهتين السابقتين، وبصرف النظر عن سلوكهما الغريب، إلا أنهما كانا يحبان الكتب، كانا يعشقان الكتب، أما الرجل الذي أمامه، فهو لا يحب الكتب ولو مثقال ذرة. ليس فقط لا يحبها، بل يعاملها كنفايات وهو قرير العين.

هذا هو معنى ما قاله القط، إذ لا يمكن توقع ما قد يفعله.

- هل أنت بخير يا ناتسوكي؟

فجأة سمع صوتًا، إنه صوت سايو.

وحين نظر بجانبه وجد زميلة الفصل توجه إليه نظرات حادة.

أومأ إليها برأسه، ثم أعاد بصره إلى الرجل الجالس فوق المقعد الأسود.

- لقد جئتُ إلى هنا بطلب من صديق لإنقاذ الكتب.

- إنقاذ؟

- أجل، وأعتقد أن هذا يعني إيقافك عمّا تفعل.

- كلامُ أحمق، لقد ذكرت منذ قليل أن هذا عملي، وليست للأمر علاقة بإنقاذ الكتب أو عدمه.

- ولكنك تعامل الكتب كأنها نفايات من الورق لا غير، إذا كان ناشر الكتب يفكر هكذا، فلن يصل شيء إلى القراء، بالرغم من الشكاوى من انخفاض عددهم أصلًا، وإذا تعامل

من هم في مثل موقفك مع الكتب هكذا، فإن محبة النَّاس لها ستخف أكثر، ويخف عدد القراء أكثر.

اجتهد رينتارو للحديث في صلب الموضوع، غير أن رئيس الشركة الأشيب لم يُبدِ أي حركة للرد.

فعيناه تحت حاجبيه الأبيضين تفتقران إلى المشاعر، ولذا لم يستطيع رينتارو قراءة أفكاره، يتصنع ابتسامة هادئة على شفتيه تُحيل فهمَه أكثر صعوبة.

بعد قليل من الصمت، لاحظ رينتارو أن كتفي رئيس الشركة ترتعشان ارتعاشات دقيقة، ثم أصبحت الرعشات الدقيقة اهتزازات كبيرة، وبعدها انفجر رئيس الشركة بقهقهات عالية.

تردد صدى القهقات الجافة العالية في أرجاء الغرفة: ها....ها....ها....ها.

استمر رئيس الشركة يقهقه أمام رينتارو وسايو المذهولين، إلى أن وضع أخيرًا يده اليسرى على رأسه محاولًا السيطرة بشكلٍ ما على القهقهة. ضرب بيده اليمنى على المكتب مرتين ثلاث، وبدأ الكلام في النهاية.

- يا لك من أحمق!

بإخفائه لها بين القهقات، كانت الجملة باردة جدًّا.

- كلا، من الظلم وصفك أنت وحدك بالحماقة، فما تقوله من سوء فهم منتشر جدًا هنا وهناك بين النَّاس.

- سوء فهم؟

- أجل سوء فهم، لا تدري أي سوء فهم؟ سوء الفهم أن الكتب لا تُباع.

ثم واصل رئيس الشركة القهقات بصوت أعلى: ها....ها....ها....ها.

- القول: إنَّ الكتب لا تُباع هذه الأيام محض خرافة، فالكتب تُباع بكثرة. وعلى أرض الواقع، فإن شركة «دار النشر الأولى في العالم» مثلًا تحقق اليوم مبيعات هائلة.

- هل تسخر منا؟

- لا أسخر، إنها الحقيقة، تحقق الكتب مبيعات في منتهى السهولة، فقط إذا اتّبعنا قاعدة واحدة.

بمتعة أخذ رئيس الشركة يتأمل رينتارو الصامت من الذهول، ثم راح يتكلم برفق كأنه يبوح بواحد من أسراره الأثيرة:

- قاعدة: «أن تبيع الكتب التي تُباع»

عبارة في منتهى الغرابة.

في منتهى الغرابة وتثير النفور.

- هذا صحيح.

ابتسم رئيس الشركة:

- لا نصدر الكتب لإيصال معنى محدد إلى القراء، بل نصدر «الكتب التي يطلبها المجتمع». لا شأن لنا بالرسالة التي ينبغي إيصالها، ولا بالفلسفة التي ينبغي إيصالها إلى الأجيال القادمة،

ولا حتى بالحقائق العصية على الفهم أو الوقائع المأسوية. المجتمع لا يرغب في ذلك. ما يهم دار النشر ليس «ماذا ينبغي إيصاله إلى المجتمع»، بل معرفة «ماذا يريد المجتمع أن يصله».

- ربما... لكن ما تقوله خطير جدًا.

- مجرد قولك: إنه أمر خطير يدل على أنك حاد الذكاء.

تناول رئيس الشركة سيجارة من علبة كانت فوق المكتب وهو يضحك وأشعلها بتأنٍّ.

- ولكنه الواقع والحقيقة، لقد فعلت شركتنا ذلك وما زالت تحقق أرباحًا بدرجة معقولة.

خلف الدخان الأرجواني المتصاعد، تتساقط آلاف الكتب بصمت.

- يُفترض بك معرفة ذلك ما دمت قد نشأت في مكتبة ناتسوكي، ناس هذه الأيام مشغولون جدًّا، لا وقت لديهم ولا مال لإنفاقها على روائع الأعمال الأدبية الضخمة، لكن؛ ولأن القراءة ما زال لها سحر وجاذبية وتضفي مكانة اجتماعية، يستميت النَّاس في تزيين سيرهم الذاتية المتواضعة ولو بشيءٍ من الفخامة، إذ يضيفون إليها أسماء كتب متوسطة الصعوبة، ونحن نفكر في ما يطلبه هؤلاء وننشر لهم الكتب.

ثم مدَّ عنقه إلى الأمام متابعًا:

- بمعنى...الملخصات الرخيصة التافهة وما شابه هي التي تُباع بشكل مهول.

ثم ضحك وهو يهز كتفيه باستمتاع.

- أفضل شيء بالنسبة إلى القارئ الذي يبحث عن الإثارة فقط، هي المواد التي تقوم على وصف العنف أو الأفعال الجنسية الصريحة، أما من لا خيال لديهم، فيكفي أن نضيف عبارة: «قصة حقيقية، حدثت بالفعل»، ليرتفع العدد المطبوع بنسبة هائلة، وتزداد المبيعات بشكل مُرْضٍ جدًا.

أخذ رينتارو يشعر تدريجيًّا بضيق في صدره.

- أمّا من لا يمد يده لتناول الكتب مهما حدث، فيكفي كتابة معلومات بسيطة على شكل نقاط متسلسلة. على سبيل المثال: خمسة شروط للنجاح، وثمانية شروط للترقي... إلخ. هذا القارئ لا ينتبه، وحتى النهاية، إلى أن قراءته مثل هذه الكتب هو الذي يجعله لا ينجح ولا ينال أي ترقية، أما نحن، فنحقق هدفنا الأسمى، وهو: "بيع الكتاب".

- توقف!

- لن أتوقف.

كان رد رئيس الشركة بلا مشاعر، إلى حد أن رينتارو شعر كأن حرارة الغرفة انخفضت درجتين فجأة.

على الرغم من قشعريرة مخيفة كانت تلفه، إلا أن عرقًا طفيفًا بدأ يعلو جبهة رينتارو.

أدار رئيس الشركة مقعده قليلًا، ونظر إليه بشكل جانبي.

ـ ثمة اختلاف كبير جدًا بين الكتب التي تراها أنت قيّمة والكتب التي يطلبها المجتمع.

لمعت عيناه ببريق الشفقة.

ـ حاول أن تتذكر لو سمحت، هل أتى زبائن إلى مكتبة ناتسوكي؟ هل يقرأ الآن أحد پروست أو رومان رولان؟ من سيشترى مثل هذه الكتب ويدفع مبالغ كبيرة؟ ماذا يطلب أغلب القراء؟ أنت أفضل من يعلم ذلك جيدًا. لا حل إلا بتغيير الكتب ما دام القراء يبحثون عن الكتب الخفيفة والمثيرة.

- والحالة هذه حقًّا...

استمات رينتارو في البحث عن الكلمات.

- ستغدو الكتب أكثر ضحالة.

- أكثر ضحالة؟ وصف ممتع، لكن مهما كنتَ شاعريًّا، فلن تزيد مبيعات الكتب.

- زيادة المبيعات ليست كل شيء، جدي على الأقل لم يغير طريقته التي كان يؤمن بها حتى النهاية.

- هل تعني تكديس الكتب التي لا تُباع والانتحار مع روائع الأعمال العالمية مثلما تفعل مكتبة ناتسوكي؟

قطب رينتارو حاجبيه ونظر إليه شزرًا.

ولكنه لم يستطع إلا أن ينظر إليه شزرًا فقط.

- لا أحد لديه اهتمام بـ: الحق، والأخلاق، والفلسفة.

الجميع مرهق من حياته، ويطلب فقط إثارة تهوّن عليه أو تروّح عن النفس. لكي تبقى الكتب على قيد الحياة في مثل هذا المجتمع لا حل إلا أن تتغير الكتب ذاتها، دعني أقلها بجرأة: المبيعات هي كل شيء فعلًا، أي تحفة أدبية ستختفي ما لم تحقق مبيعات جيدة.

أحسّ رينتارو بدوار خفيف، فوضع يده على جبينه، وبتلك اليد لمس إطار نظارته برفق، ولكن لم تأتي أفكار مرتبة كالعادة، كانت هناك كلمات منافسة خارج توقعاته تمامًا.

لو كان الكلام على جاذبية الكتب وقيمتها، لكان بمقدوره الحديث إلى ما لا نهاية.

ولكن قيمة الكتب التي يقدمها الخصم لم يفكر فيها من قبل بتاتًا، فكل منهما ينظر إلى عالم مختلف تمام الاختلاف.

- لا تخف يا ناتسوكي.

فجأة سمع صوتًا، إنه صوت سايو.

أحس رينتارو بقوة ما فوق ذراعه اليسرى، فالتفت جواره، تحركت سايو، واقتربت في غفلة منه، ثم أمسكت بذراعه بقوة.

- أنت بخير وبلا مشكلة.

- لا أشعر مطلقًا أنني بخير وبلا مشكلة.

- ومع ذلك أنت بخير وبلا مشكلة.

حملقت سايو في الرجل التي خلف المكتب ولم تتحرك.

- ما يقوله هذا الرجل منفّر وغريب، لا شك في ذلك.

- وأنا أيضًا أعتقد أنه منفّر وغريب، ولكنه منطقي.

- المنطق ليس هو القضية.

قالت سايو بوضوح:

- لا أفهم كثيرًا في الحجج والمنطق، ولكن كلمات هذا الرجل غير طبيعية.

نظر رينتارو فجأة إلى وجه سايو.

وفي اللحظة نفسها ترددت في أعماقه كلمات القط العتابي.

«قوة الحقيقة في هذه المتاهة هي الأقوى، ولكن ليس كل شيء حقيقة. فثمة كذب بالضرورة في مكانٍ ما»

هز رينتارو برأسه موافقًا.

طغت كلمات الرجل على رينتارو؛ بسبب تطرفها الشديد. كانت بالتأكيد صادمة، ولكنها غير منسجمة.

وضع يده مجددًا على إطار النظارة.

- لا جدوى من التفكير يا رينتارو ناتسوكي!

دوّى صوت رئيس الشركة ومع الصوت تراقص عاليًا دخان السجائر الكثيف.

- أنت ما زلت شابًا، وربما لا تريد تقبل الحقائق على أرض الواقع، ولكن أنا، أعرف جيدًا الآلية التي يسير عليها

هذا العالم، فما يحدد قيمة الكتاب ليس عمق ما تشعر به أنت، بل عدد النسخ الصادرة، بمعنى أن النقود هي التي تقرر قيمة كل شيء في المجتمع المعاصر، ومن ينسى ذلك ويجري وراء المثاليات، فلن يقابل إلا بالسقوط والطرد، إنه لأمر محزن، ولكن...

كان لصوته ثقل متفرد شبيهٌ بحديث الوعّاظ.

وكان من الواضح جدًا أنه يحاول عرقلة رينتارو عن التفكير، غير أن سايو تتشبث بذراعه كأنها تساعده في...

يضحك رئيس الشركة بهدوء.

رينتارو يبدأ التفكير باجتهاد.

فكر ثم فكر، واعتقد أنه تقدم خطوة إلى الأمام أخيرًا، ولكن قهقات رئيس الشركة ورائحة السجائر المنفرة أحاطت به على الفور كضباب كثيف.

وبالرغم من ذلك بقي رينتارو يخترق ذلك الضباب. لا يتوقف مهما حدث.

- بالتأكيد مكتبة ناتسوكي غريبة بعض الشيء.

نظر رينتارو إلى محاوره الساحق الذي يجلس في الجهة الأخرى من المكتب.

- فالزبائن عددهم قليل، ومبيعات الكتب منخفضة كذلك، ولكنها مع ذلك مكان متفرد.

- هناك كلمة تُسمى: "اليأس".

هز رئيس الشركة رأسه يمينًا وشمالًا بتباهٍ:

- إنها الكلمة التي تناسب مشاعري الآن تمامًا، فلا أحد يهتم بمشاعرك الشخصية أنت إطلاقًا.

- ليست مشاعر شخصية، وكل من يأتي إلى المكتبة يشعر بالمشاعر ذاتها، فمشاعر جدي المتفردة تملأ تلك المكتبة الصَّغيرة، ويشعر بها كل من يدخلها، ولهذا السبب لها تميزها الخاص.

- في الواقع، هذا كلام نظري غامض، لا يمكنك أن تقنع أحدًا به، هل لك أن تخبرني عن مشاعر جدك المتفردة تلك بقليل من التفصيل؟

- لا ضرورة لذلك؛ لأنه مثلك تمامًا.

كلمات رينتارو التي ألقاها بهدوء صدمت رئيس الشركة، فوقف مبهوتًا، ولم يستطع الحركة بسهولة.

يتصاعد الدخان ببطءٍ من بين أصابعه على شكل خيط رفيع، ثم يتلاشى في النهاية.

ضيّق رئيس الشركة عينيه قليلًا، ثم حرك شفتيه.

- لا أفهم جيدًا ما قلته.

- تكذب.

تحرك حاجبا رئيس الشركة الأبيضان فجأة.

- قلتَ منذ قليل: إن الكتب مواد للاستهلاك، وقلت: إن هذا العمل لا يمكن القيام به إذا كان الشخص يحب الكتب.

- بالضبط.

- وهنا تكذب أيضًا.

تردد صوت رينتارو القوي في أرجاء الغرفة.

سقط رماد السيجارة في المنفضة فجأة.

- قلتَ منذ قليل، لكي تبقى الكتب على قيد الحياة لا حل إلا بتغيير شكلها. هذا يعني أنك تريد بقاء الكتب على قيد الحياة، لو كنت تعتقد فعلًا أن الكتب مواد للاستهلاك لا غير، ما كان لهذه العبارة أن تصدر عنك.

- منطق دقيق.

- لأن الدقة مهمة. إذا كنت ترى أن الكتب نفايات من الورق لا غير، فمن الأفضل أن تترك هذا العمل، ولكنك تبذل كل ما تستطيع لتغيير شكل الكتب كي تبقى على قيد الحياة، ومن أجل ذلك تسبتميت للبقاء فوق هذا المقعد مثل جدي تمامًا.

توقف صوت رينتارو، فتنزل الصمت الثقيل على المكان.

هدأت الغرفة تمامًا، وكانت الكتب فقط تتساقط بلا صوت خارج النافذة من حين إلى آخر، من الواضح أن عدد الكتب التي تتساقط بدأ بالانخفاض.

حملق رئيس الشركة في رينتارو هنيهة، ثم استدار ببطء إلى مقعده، وألقى نظرة على المشهد الموحش الكئيب خارج النافذة.

- أمر لا أهمية له.

كانت هذه هي الكلمات التي تسربت من فمه أخيرًا.

- ينبغي ألا تغير محور النقاش، يجب عليك النظرُ مباشرة إلى الواقع بصرف النظر عن مشاعري. الكتب تزداد ضحالة. والنَّاس يتجمهرون حول الكتب الضحلة، وهذه الكتب تلبي حاجة هؤلاء. لا يمكن إيقاف الدائرة، أليس أفضل دليل على ذلك هو تراجع زبائن مكتبة ناتسوكي أيًّا كان مقدار المشاعر المتفردة التي هناك؟

- لا تقل ما لا تعلم.

تردد في الغرفة صوت حيوي كالسيف القاطع.

التفت كل من رينتارو ورئيس الشركة إلى صاحبة الصوت.

تحدثت سايو بصوتها القوي الممتلئ حيوية ونشاطًا كعادتها دائمًا.

- لا تتحدث عما لا تعرفه، ولا تقل: إن زبائن مكتبة ناتسوكي في تراجع، فلهذه المكتبة زبون دائم هو أكيبا، لا تروقني شخصيته، ولكنه في منتهى الذكاء، وحاليًّا أنا من زبائن المكتبة أيضًا.

لم يكن ذلك أمرًا يُقال بكل هذا الفخر، وبالرغم من ذلك كان صوتها حيويًّا بلا أي حيرة أو تردد.

- ولكن...

لم يهتز رئيس الشركة لذلك.

- هذا القدر من الزبائن لا يحقق أرباحًا، ولا معنى إذا لم ترتفع المبيعات، فالمكتبات ليست مشروعًا خيريًّا.

- إذًا كم يجب أن تبلغ المبيعات التي تحقق رضاك؟

- كم؟

ردًّا على سؤال رينتارو المفاجئ فتح رئيس الشركة عينيه قليلًا.

- كان جدي كثيرًا ما يقول لي: «إذا بدأ الحديث عن المال، فلن ينتهي، من معه مليون سيطمح للحصول على مليونين، ومن معه مائة مليون سيطمح في المئتين، ولذا، فلنوقف الحديث عن المال، ودعنا نتحدث عن الكتب التي قرأناها اليوم». حتى أنا لا أعتقد أن المكتبة يجب ألا تحقق أرباحًا، ولكنني أدرك أيضًا وجود شيء آخر في مستوى أهمية تحقيق الأرباح.

تحدث رينتارو كأنه يلتقط بيده الكلمات التي تطرأ على ذاكرته واحدة بعد أخرى.

ليس بأسلوب الإفحام ولا بنبرة الوعظ، بل بحوار عادي أبلغه ما يشعر به فقط.

- ينبغي ألا تصف الكتب بأنها مادة للاستهلاك وأنت ناشر كتب، حتى لو حدث أحيانًا، وسارت الأمور على غير ما تريد. عليك أن تقول بصوتٍ عالٍ: أنا أحب الكتب.

وردًا على تساؤل رينتارو: هل أنا مخطئ؟ نظر إليه رئيس الشركة دون أن يحرك ساكنًا.

ضيق عينيه كأنه يحملق في شيء باهر للعيون وهو يشبك يديه كما هما فوق المكتب.

- لو افترضنا أنني قلت ذلك، فلن يتغير شيء.

- سيتغير.

كان رد رينتارو سريعًا.

- طالما قلت: إنك تحب الكتب، فلن تنشر كتبًا لا تحبها.

فتح رئيس الشركة عينيه قليلًا، ثم حرك طرف شفتيه بحركة خافتة.

احتاج رينتارو بعض الوقت لكي ينتبه أن هذه ابتسامة متكلفة.

وعلى حين غرة، لم نعد نرى كتبًا تتساقط خارج النافذة، وتحول كل شيء إلى سكون تام كأن الزمن قد توقف.

- طريقة حياتك هذه سوف تتعبك كثيرًا.

أجاب رئيس الشركة أخيرًا وهو ينظر إلى رينتارو مواجهة.

رينتارو هو الآخر أيضًا لم يحول عينيه بعيدًا.

- جلوسك في هذا المكان وأنت تدعي كره الكتب، متعب أيضًا.

- نعم، نعم، أفهم.

حين همس رئيس الشركة بتلك الكلمة الخافتة، فُتح باب الغرفة فجأة، وظهر وجه فتاة الاستقبال.

لقد حان الوقت، قالت الفتاة. رفع رئيس الشركة يده قليلًا، فعادت من حيث أتت، وظل صامتًا لا يُحرك ساكنًا، ثم مد ذراعه أخيرًا ببطء شديد، وأشار إلى البوابة. البوابة السميكة التي خرجت منها الفتاة منذ لحظة، فُتحت هذه المرة على مصراعيها، دونما صوت، وظهرت للعيان السجادة الحمراء التي تؤدي إلى المصعد.

لا كلام على الإطلاق.

تبادل رينتارو النظرات مع سايو، ثم أعطيا ظهريهما للمكتب وشرعا في السير، فلحق بهما صوت من الخلف.

- حظًّا موفقًا في هذا الكفاح!

التفت رينتارو إلى الخلف، ثم نظر إلى الرجل الجالس خلف المكتب.

تحت الحاجبين الأبيضين تشع عيناه ببريق هادئ تصعب معه قراءة مشاعره.

وبعد هنيهة أجاب رينتارو:

- ولك أيضًا.

لعل رئيس الشركة لم يكن يتوقع مثل هذا الرد، فتح عينيه

بشكل خفيف، واسترخت هذه المرة أطراف فمه بوضوح، ودونما وعي منه بدت عليه ابتسامة لطيفة ومرة.

*

- أتعبتك معي، يعطيك العافية!

تردد صدى صوت أجش اعتاد رينتارو سماعه في أرجاء ممر الكتب المحاط بأشعة شاحبة.

التفت القط العتابي الذي كان يمشي في الأمام إلى رينتارو وزميلته:

- يبدو أنك نجحت في المهمة نجاحًا باهرًا.

- لستُ أدري، ولكن على الأقل ودعني رئيس الشركة بابتسامة.

- هذا كافٍ.

أومأ القط العتابي برأسه، وتابع السير دونما صوت.

أشعة شاحبة، كتب لا حصر لها تملأ الجدران على الجانبين، مصابيح مضاءة على مسافات متساوية. هذا المشهد العجيب، بات الآن مألوفًا بالنسبة إليه. يسير عائدًا يتقدمه القط العتابي في هذا الممر المألوف أيضًا.

بعد أن وجه إليه كلمات التقدير على مجهوده، أغلق القط العتابي شفتيه بإحكام، وتابع سيره ملتزمًا الصمت التام، كان الصمت أبلغ في البوح عن أمور عديدة.

- قلتَ: إن هذه هي النهاية، أليس كذلك؟

فتح رينتارو فمه على استحياء.

- بلى، هو ذا.

حين توقف القط العتابي وأجاب، كانوا ودون دراية منهم داخل مكتبة ناتسوكي، عودة مفاجئة كما لو كان طريق الذهاب الطويل وهمًا.

قاد القط العتابي الاثنين إلى داخل المكتبة، استدار إلى الخلف، ومر جوار أقدام رينتارو وسايو، وعاد إلى الممر.

بلا تحية وداع خاصة، فتح رينتارو فمه دونما وعي:

- هل ستذهب؟

- عليّ الذهاب.

التفت القط العتابي إلى الخلف، وانحنى برأسه انحناءة عميقة.

- بفضلك تم إطلاق سراح كتب كثيرة... أشكرك.

بقي القط مديرًا ظهره للأشعة الشاحبة وهو يحني رأسه دونما حركة.

على الرغم من أن هذا المنظر بعيد تمامًا عن الواقع، إلا أنه يوصل مشاعر راقية، لم يستطع رينتارو الرد.

- لقد تخطيتَ المتاهات الثلاث جميعًا بقوتك الذاتية، وبهذا ينتهي دوري.

- ماذا تعني بـ: ينتهي دوري؟ ألن نلقاك بعد الآن؟

تدخلت سايو في الحوار مرتبكة.

- لا لن نلتقي بعد ذلك، فلم تعد للأمر ضرورة.

ولكن... قالت سايو ذلك، ونظرت في حيرة إلى رينتارو، كان رينتارو يقف صامتًا بشكل مطبق، لكنه تنهد أخيرًا وفتح فمه:

- إذا كان هذا وداعًا حقيقيًّا، فهناك كلمة واحدة أود أن أقولها.

- لا مانع من أن تقول أي شيء، سواء أكانت كلمة حقد أم ضغينة أم حتى شتيمة، قل ما تشاء بلا تحفظ.

- ليس أمرًا عظيمًا، فقط، أريد أن أقول لك: "شكرًا"، هذا كل ما في الأمر.

قالها، ثم انحنى برأسه.

عند تلك الكلمة غير المتوقعة، لم تندهش سايو فقط، بل اندهش القط العتابي أيضًا.

- هل تحاول أن تسخر مني؟

- مستحيل! رفع رينتارو وجهه بابتسامة مرة.

- فحتى أنا أعرف هذا القدر القليل من الأمور.

- أتعرف؟

أومأ رينتارو برأسه ردًّا على ملامح القط المرتاب.

- لقد ظهرتَ أمامي وهدفك إطلاق سراح الكتب، وطلبتَ مني المساعدة. ولكن الأمر كان يختلف حقًّا بعض الشيء في نظري.

لم يتحرك القط لكلمات رينتارو.

بل راح يتأمله بعينيه الخضرواين ثابتًا لا يتحرك.

- يوم وفاة جدي، كنت لا أبالي بشيءٍ، لمَّا أحتمل رحيل جدي أيضًا بعد رحيل أبي وأمي، فسئمت الحياة، وكرهتُ كل شيء، ثم ظهرت لي أنت وأنا في تلك الحالة.

حك رينتارو وجنته قليلًا؛ لإخفاء شعوره بالإحراج.

- لو لم تظهر لي لبقيت غير قادر على الصمود والابتسام هكذا، لقد طلبتَ مني المساعدة، ولكنك في الحقيقة كنتَ تساعدني.

نظر رينتارو إلى القط وأخذ نفسًا عميقًا، ثم أكمل:

- لقد أخرجتني بالقوة من عزلتي/ سجني في المكتبة. وأنا أشكرك على ذلك.

- العزلة في المكتبة أمر جيد، لكن ما كنتُ أخشاه هو اعتكافك داخل «قوقعتك».

أجاب القط بصوته الأجش.

- قوقعتي؟

- اكسرْ تلك القوقعة.

أجاب القط بصوت أجش، ولكنه مع ذلك تردد صداه العميق ليتغلغل داخل الأحشاء.

- حذار من العودة إلى الوحدة، فأنت لستَ وحيدًا، وأنت محاط بكثير من الأصدقاء.

كانت كلمات عجيبة.

كلمة وداع حاسمة وفي الوقت ذاته دافئة.

بلع رينتارو أسئلته الكثيرة، وراح ينظر إلى الوراء بصمت وهدوء.

صحيح أنه لم تمر على رحيل جده سوى بضعة أيام، غير أن وقت الحزن والكآبة كان يمتلئ مرحًا خافتًا بفضل قضائه مع قط عجيب، هذه هي الهدية العظمى التي حملها إليه هذا القط.

هذه ليست تبريرات شفوية، لا جواب على أي سؤال، ولا حل لأي مشكلة، وهو في الأصل لا يعرف كيف وأين يطرح السُّؤال.

- شكرًا لك على أي حال.

- هذه بادرة جيدة.

ابتسم القط ابتسامة صفراء.

ابتسم، ثم انحنى انحناءة جليلة، واستدار إلى الخلف، قفز في ممر الكتب الغارق في أشعة خافتة، وراح يجري كما هو كأنه يقطع الرياح.

ودعه رينتارو وسايو بأنظارهما فقط وبصمت.

لم يتلفت القط إلى الخلف ولو مرة واحدة.

ولحظة اختفائه داخل الأشعة الزرقاء اللطيفة البعيدة، انتبه الاثنان فجأة إلى أن جدران المكتبة الخشبية القديمة تحجب عنهما الرؤية بشكل طبيعي.

تردد صدى جرس الباب مرة واحدة فقط، وبرنين صافٍ بالرغم من عدم وجود زبائن.

الفصل الرابع

المتاهة الأخيرة

أمال إبريق الشاي الأبيض المدوّر على الكوب ماركة "ويدجوود" الذي أضحى قديمًا لكثرة الاستخدام، ففاحت رائحة شاي أَسام العطرة.

وضع في الكوب مكعبًا واحدًا من السكر وكثيرًا من الحليب.

ثمَّ حرّك بملعقة فضية رسمت قوسًا لطيفًا سرعان ما تحوَّل إلى دائرة بيضاء، ثم اختفى. لحظة إمساكه الكوب وإمالته للرشف منه، هي لحظة سعادة بامتياز.

هزَّ رينتارو رأسه برضا بالغ.

- بتُّ أكثر براعة.

يقصد براعته في إعداد الشاي.

كانت عادة جده اليومية هي إعداد كوب من الشاي بعد أن يفرغ من تنظيف المكتبة في الصباح، ظل رينتارو يقلده في تلك العادة مدة أسبوع إلى أن شعر أنه قريب الشبه به.

- رين ـ تشان!

فجأة سمع صوتًا حادًّا ورفيعًا، فالتفت إلى باب المدخل.

كانت امرأة طيبة القلب بوجهٍ مُدوَّر تختلس النظر من باب المدخل المضيء، بينما أشعة الشَّمس تنسكب على ظهرها.

- اليوم يوم النقل وإخلاء هذا البيت، فهل الاستعدادت على ما يُرام؟

«رين ـ تشان مرة أخرى؟»، ابتسم رينتارو ابتسامة مرّة، ثم وضع كوب الشاي وتوجه جهة الباب.

العمة بالصدارية البيضاء، مع أنها تخطت الخمسين عامًا، لكنها وإلى مظهرها السمين الجذاب، تبدو شابة؛ بسبب طريقة كلامها وسلوكها بشكل عام.

السماء غائمة اليوم إلى حدٍّ ما، والخارج يبدو مشرقًا بشكل غريب، ليس لأن جو المكتبة قاتم؛ بل لأن روح العمة المرحة غيرت الهواء البارد إلى جو مفعم بالفرح.

- هل موعد شاحنة نقل العفش بعد الظهر يا عمتي؟

- ماذا تقول يا رين ـ تشان؟

بدت ملامح خيبة أمل على وجهها.

- توقف عن التحدث معي بلغة رسمية كأنني غريبة عنك، لن يصيبك إلا تصلّب الكتفين.

صوتها واضح ونقي بلا إساءة.

ألقى نظرة إلى الخارج، فكانت سيارة عمته الفيات 500 تقف أمام المكتبة. منظر العمة وهي تركب بصعوبة في تلك السيارة الأجنبية الضيقة فكاهة غريبة تجعل المرء يحس بالدفء من أعماق قلبه.

- سأذهب للتسوق قليلًا، هل تريد شيئًا؟

واصلت العمة كلامها وهي تحشر جسمها الضخم في السيارة الصَّغيرة.

- سأعود قبل الظهر، ولا تقلق سأشتري لك وجبة الغداء، واصل أنت استعداداتك يا رين تشان.

بأريحية ألقت كلماتها واحدة بعد أخرى، فهز رينتارو رأسه وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة، غير أنَّ العمة أوقفت حركاتها بعد أن أمسكت مقود السيارة، ورفعت ناظريها إليه.

وحين سألها: ماذا هناك؟

- ما هذا يا رين تشان؟ لقد تغيرت. كان وجهك في أثناء الجنازة مريعًا، وبدوت على وشك الانطفاء، لذا كنتُ قلقة جدًا عليك، ولكن يبدو أنك لستَ ضعيفًا كما ظننتُ.... آه، بالمناسبة هذا مديح بطريقتي الخاصة.

- أنا بخير.

أجاب رينتارو وهو يحاول إظهار أقصى ملامح الفرح على وجهه.

- لا أقول: إن كل شيء على ما يرام، ولكنني بخير.

حتى لهذه الكلمات الباعثة على القلق، ضحكت العمة وصاحت فجأة وهي تنظر إلى السماء «أوه».

نظر هو أيضًا إلى السماء، وفتح عينيه قليلًا.

فسمع صوت العمة المتأثر بعمق.

- هي ذات الثلوج!

من السماء التي تغطيها غيوم رمادية، يهطل الثلج قطعة بعد أخرى بلا صوت مثل القطن الأبيض. الشَّمس غائبة، والسماء كلها تتلألأ بالثلوج، فبات المكان مشرقًا. توقف عددٌ من المارة، وراحوا ينظرون إلى سماء نادرة الحدوث.

- جميلة هي الثلوج. تملأ القلب فرحة وإثارة.

تتحدث العمة بتلقائية كفتاة صغيرة دون الشعور بأن تلك الكلمات لا تناسبها، شخصية استثنائية.

- سأشتري مساء اليوم كاتو للاحتفال، فانتظرني بفرح يا رين تشان.

- كاتو؟

- الليلة ليلة عيد الميلاد.

فوجئ رينتارو بصدق صوت العمة المتحمس.

ونسي بعد وفاة جده النظر إلى التقويم.

حين نظر إلى شوارع المدينة فجأة، رأى شجر الطرقات وواجهات البيوت ترتدي حلل عيد الميلاد الزاهية. البيوت

والنَّاس أيضًا، يبدون كأنهم أعدوا العدة وتأهبوا، إلا رينتارو ومكتبةَ ناتسوكي بقيا في هيئة متجهمة لا تتناسب مع الموقف.

- أم أن لديك خطة لقضائها مع فتاتك الفاتنة؟

- لا احتمال لوجودها مطلقًا.

- أمزح معك.

رفعت العمة صوتها ضاحكة، مرحة، ثم أدارت المحرك بنشاط وحيوية وأردفت برشاقة: "حسنًا إلى اللقاء، سأعود سريعًا"، وانطلقت بسيارتها.

كانت الشوارع قد امتلأت بدراجات خدمات التوصيل إلى المنازل، وهنا وهناك طلاب المدارس الثانوية الذاهبون إلى التدريبات الصباحية للأنشطة الطلابية المختلفة. ليس لدى رينتارو حيال ليلة عيد الميلاد أي مشاعر أو ذكريات تجعله يتأثر عاطفيًّا بشكل خاص، ولكنه لا يستطيع تجاهلها، إذ كانت هذه آخر مرة يشاهد فيها هذه المناظر التي اعتاد عليها. حتى هطول الثلج حمل مغزى محددًا جعله يقف في مكانه بعض الوقت دون حراك.

لم تمر على وفاة جده إلا عشرة أيام تقريبًا. مدة قصيرة جدًا، ولكنه شعر أن أزمانًا مديدة قد مرت عليه؛ بسبب ما خاضه من مغامرات عجيبة. ومن قلب تلك الذاكرة الممتلئة، تظل ابتسامة القط العتابي ذات المغزى العميق في آخر حوار بينهما عالقة في لا وعيه.

القط ذو الشعر الكثيف ودعه منذ ثلاثة أيام، وبسبب انشغاله في استعدادات النقل، مضى الوقت بعدها كلمح البصر حرفيًّا.

لم يظهر القط العتابي مرة ثانية خلال تلك الفترة، حتى وإن كان قد أطال التحديق إلى الجدار الخشبي في عمق مكتبة ناتسوكي، الجدار هو الجدار ذاته المعتاد بلا تغيير.

كانت سايو تمر إلى المكتبة في الذهاب والإياب من وإلى المدرسة أو النشاط الطلابي، وتشرب الشاي مع رينتارو، كانت تتحدث عن ستندال الذي تقرأه، ولكنها على الأرجح كانت مهتمة جدًا بذلك القط العتابي العجيب.

طبعًا، سيكون كذبًا القول: إن رينتارو نفسه لا يهتمَ بأمره.

ولكن الزمن يمضي بلا رحمة ولا رأفة.

من الخبرة العملية، يعرف رينتارو أن هذه هي الحياة، مهما وقع من أحداث محزنة أو أحداث مؤلمة أو غير قابلة للتصديق، فلن يتوقف الزمن وينتظره. ومع ذلك وصل إلى هذا اليوم بشكل أو بآخر ودوامة الزمن تتقاذفه.

بقي رينتارو مدة يتأمل السماء وهي تندف الثلوج، ثم استعاد نشاطه أخيرًا وعاد إلى المكتبة، وفي اللحظة التي عاد فيها وأوشك على ترتيب أدوات الشاي، توقفت حركاته فجأة.

أشعة شاحبة غمرت عمق المكتبة الذي كان مسدودًا بالجدار الخشبي منذ قليل، وقبل أن ينطق متعجبًا وجد قطًّا عتابيًّا يجلس بهدوء موليًّا ظهره لتلك الأشعة.

أمام عيني رينتارو الذي كتم أنفاسه شوارب بيضاء مستقيمة تهتز اهتزازًا خافتًا.

- لم نتقابل منذ فترة أيها الوريث!

ابتسم رينتارو ابتسامة مصطنعة لذلك الصوت الأجش الذي تعود على سماعه.

- لم تمر إلا ثلاثة أيام فقط.

- هل هذا حقيقي؟

- هل من الأفضل أن أقول: أهلًا بعودتك؟

- لا ضرورة للمجاملات.

وجّه القط عينيه إلى رينتارو، وخلفه الأشعة الشاحبة.

- أريد منك المساعدة.

زادت أشعة رفوف الكتب التي خلف القط قوتها.

*

- ظهرت ضرورة لمساعدتك مرة أخرى.

دائمًا ما تكون كلمات القط مفاجئة بلا تحيات ولا شروحات، وطبعًا دونما أي نية للاحتفال باللقاء المفاجئ مرة أخرى.

- ظننتُ أنه الفراق...

- لقد تغير الوضع، يجب الذهاب إلى متاهة أخرى.

كان طليق اللسان كما هي حالته دائمًا، ولكن في صوته مشاعر توتر غير عادية.

- هل حدث شيء؟

- ظهرت متاهة رابعة.

- رابعة؟

- وضع لم أتوقعه على الإطلاق، أحتاج إلى مساعدتك مرة أخرى.

وصل إلى هذا القول، ثم أضاف بصوتٍ أكثر خفوتًا:

- ولكن الخصم هذه المرة عنيد، يختلف تمامًا عمن سبقوا حتى الآن.

دائمًا بأسلوبه المعتاد من الضغط بلا تحفظ، لكن نبرته تفتقر إلى الصرامة التي يتميز بها، وكان ذلك دليلًا على حالة طوارئ غير طبيعية.

- وهل من الأسلم أن تطلب مني أنا مجددًا مع كل ما تقوله عن شراسة الخصم؟

- لا يمكن أن يقوم بذلك سواك، فهذا طلب الخصم!

- الخصم؟

- إنه في الواقع خصم شرس، هذه المرة احتمالية عدم رجوعك كبيرة حقًا، ولكنك الوحيد الذي يقدر عليه.

ثمة نبرة إلحاح تقترب حقًا من الابتهال.

أجاب رينتارو مع شعوره بالمفاجأة:

ـ فهمت، هيا، فلنذهب.

كانت استجابته سريعة.

سريعة إلى درجة أن القط العتابي هو الذي تأخر في الرد، برقت عيناه الخضراوان، وتأمل وجه رينتارو غير مصدق.

ـ لقد سمعتَ أن في الأمر خطورة، أليس كذلك؟

ـ وسمعت كذلك أن الأمر هذه المرة يختلف تمامًا عما سبق، وسمعت أيضًا احتمال عدم العودة.

ـ ومع ذلك، سوف ترافقني؟

ـ ألستَ في ورطة؟ هذا سبب كافٍ جدًا.

كان وجه القط العتابي كأنه ينظر إلى شبح في وضح النهار.

ـ هل أنت على ما يُرام أيها الوريث؟

ـ تراني سأغضب من طريقة كلامك هذه.

ـ ولكن...

ـ أردتُ أن أشكرك، قلت لك شكرًا، ولكنني في النهاية لم أردّ لك الجميل. وهذه فرصة جيدة لذلك.

حدق القط العتابي في رينتارو بعض الوقت، وأخيرًا هز رأسه بتأثر بالغ غير مألوف منه.

ـ أشكرك.

أضاف رينتارو:

- ولكن... شرطي أن نتحرك فورًا.

قال ذلك، ثم توجه بخطوات سريعة إلى المدخل، وأغلق الباب، وأسرع بوضع القفل عليه.

- لقد حان وقت مرور يوزوكي. من المؤكد أنها ستطلب مرافقتنا. ولا أريد توريطها طالما الأمر بتلك الخطورة.

صمت القط العتابي وعلى وجهه ابتسامة مريبة.

وحين التفت رينتارو إلى الخلف جهة القط كان هذا ينظر إليه بعينين صارمتين على غير عادته.

- للأسف، ليس لدينا خيار آخر.

هذا الرد الذي يصعب فهمه، جاءه بصوت بلا مشاعر.

أوقف رينتارو يديه، وقطَّب حاجبيه وسط صمت غريب ومتوتر.

خارج المكتبة علا رنين جرس دراجة، ثم ابتعدت على الفور، وبعد أن عاد الهدوء بالكامل إلى المكتبة فتح القط العتابي فمه:

- لقد خُطفت سايو يوزوكي، وهي الآن سجينة في أعمق مكانٍ من المتاهة تنتظر مجيئك.

أُخذ رينتارو على حين غرة، ولم يستطع الرد فورًا.

- هل تسمعني أيها الوريث؟

ـ لا أفهم ما تقول...

ـ الأمر بسيط، خُطفت سايو يوزوكي، هذه الرحلة الأخيرة ليس هدفها إنقاذ الكتب.

ألقى القط نظرات حادة على رينتارو:

ـ بل رحلة من أجل إنقاذ صديقتك.

أجال رينتارو نظره في المكان، وراح بعينيه إلى ممر رفوف الكتب المتواصل من عمق المكتبة.

يتتابع الممر مستقيمًا، والكتب تملأ الجدران بلا نهاية، وأشعة شاحبة تضيء كل ذلك.

تُرى لماذا؟

فجأة أحس رينتارو برعشة باردة تثير الرعب.

*

«في النهاية تنوي عدم المجيء إلى المدرسة، أليس كذلك؟»

قالت له سايو تلك الكلمات في صباح باكر منذ يومين اثنين فقط.

ظهرت سايو في المكتبة، كما اعتادت في طريق ذهابها إلى التدريب الصباحي لفرقة الموسيقى بالمدرسة، وبوجهٍ مليء بخيبة أمل، حدقت إلى رينتارو وهو يصنع الشاي فوق طاولة الحساب.

تحاوارا قليلًا، ولكنه لا يتذكر شيئًا تقريبًا. على الأرجح أنهما دردشا باسترخاء وراحة.

عن الكتب، وعن الشاي، ثم عن القط قليلًا فقط.

وبعد انتهائهما التفتت إلى الخلف وهي على وشك الذهاب للحاق بالتدريب الصباحي:

«لا تبقَ هكذا منعزلًا مطأطئ الرأس، طبعًا هناك أمور كثيرة لا تناسبك، ولكن هذه هي حياتك...»

قالت سايو ذلك وتوقفت عن الكلام، وتردد صدى صوتها المنعش على الفور.

«انظر أمامك جيدًا، وانطلق».

كانت نصيحة كالنصل القاطع تليق بمسؤولة الفصل الذكية.

وكانت في الوقت ذاته كلمات تشجيع لزميل الفصل الذي سينتقل إلى مسكن آخر.

استقبل رينتارو تلك الكلمات بمشاعر نقية.

استدارت إلى الخلف بخفة دون أن تسمع رده، وخرجت إلى مدخل المكتبة المشرق، فودع رينتارو ذلك القفا بسعادة.

بانبهار شديد، انطبعت على جفونه من الداخل يد سايو البيضاء وهي تلوّح مودعة تحت أشعة الصباح.

- أحيانًا تقع أمور عجيبة.

تمتم رينتارو وهو يمشي في الممر، حيث تتراص رفوف كتب عملاقة.

ـ هذه أول مرة في حياتي أقلق جديًّا بشأن شخص آخر.

التفت القط السائر أمامه إلى الخلف، وألقى عليه نظرة سريعة دون أن يقول شيئًا.

تتابع ممر الكتب طويلًا وبلا نهاية بالرغم من أنه قد تعود عليه، لا يدري أهو يشعر فقط أنه طويل، أم أنه طويل في الحقيقة، ولكن تتابع رفوف الكتب ومصابيح الإضاءة أمامه بلا نهاية.

ـ لماذا خُطفت يوزوكي؟ إذا كانوا يريدون مني شيئًا، فمن الأفضل خطفي أنا منذ البداية.

ـ لا أعرف السبب، وليس أمامك إلا أن تسألهم مباشرة.

كانت الإجابة مملوءة بالمرارة.

ـ ولكن ربما رأوا أنها المفتاح الذي يمكن تحريكك به.

ـ ... يا لصعوبة ما تقول!

ـ ليس صعبًا أبدًا، فتلك الفتاة كانت تقلق عليك دائمًا.

قال القط السائر في المقدمة دون أن يتلفت إلى الخلف:

ـ قلقت قلقًا حقيقيًّا على زميل مكتئب، فقد جده وانعزل في بيته لا يخرج منه.

ـ لأنها مسؤولة الفصل وذات إحساس عالٍ بالمسؤولية، فضلًا عن علاقة الجيرة بيننا...

- لا أدري هل سيكون ذلك مفيدًا لك أم لا، ولكن دعني أخبرك شيئًا واحدًا فقط.

قطع صوت القط العتابي الأجش كلام رينتارو بلا تحفظ.

- لقد قلت لك في المرة الأولى التي أتت فيها تلك الفتاة إلى المكتبة: لا أحد يستطيع رؤيتي إلا إذا كان يتمتع بشرط ذي طبيعة خاصة. هذا الشرط ليس قدرات خارقة للطبيعة.

توقف القط والتفت إلى الخلف نحو رينتارو:

- بل هو «أن يكون لديه قلبٌ يتعاطف مع مشاعر الآخرين»

تردد صدى تلك الكلمات العجيبة.

- وعبارة: "قلب يتعاطف مع المشاعر"، لا تعني كلمات تعاطف هش بصوت ناعم، بل تعني المعاناة مع مَن يعاني، والتألم مع مَن يتألم، ومرافقته، أحيانًا، في المعاناة والألم خطوة خطوة.

مشي القط العتابي مجددًا، فتبعه رينتارو على عجل.

- هذه ليست قدرات خاصة، بل هي ملكة متأصلة في قلوب النَّاس جميعًا بالفطرة. ولكن الكثيرين، من أمثالك، فقدوها مع تراكم الأيام الشاقة المملوءة بالهموم..

كلمة القط العتابي الهادئة صدمت رينتارو.

- في الأيام الخانقة ينشغل الجميع بأنفسهم ويفقدون اهتمامهم بالآخرين. من فقد قلبه لا يشعر بآلام النَّاس، لا يشعر

بالذنب وهو يكذب، ويجرح الآخرين، ويدهس الضعيف للصعود إلى أعلى، يمتلئ العالم بهؤلاء.

ترددت أصداء هذه الكلمات الثقيلة في أرجاء الممر الذي بدأ يُغيّر من ملامحه بالتدريج.

وعلى حين غرة، تغيرت رفوف الكتب الخشبية التي كانت تملأ الجدارين على الجانبين، وتفتقد أي نوع من الزينة، إلى بناء فاخر مصنوع من خشب بلوط مطعم بالعاج، وبدأ الممر نفسه يتسع تدريجيًّا حتى صار الآن ممرًا كبيرًا يمكن لخمسة أو ستة أفراد السير فيه جنبًا إلى جنب.

اختفت المصابيح التي فوق الرؤوس، وازداد ارتفاع السقف، وأضيء المكان كله بأنوار شموع تصطف شمعداناتها على مسافات متساوية أمام رفوف الكتب.

يسير القط ورينتارو بهدوء في هذا الممر العملاق.

- ومع ذلك، حتى في هذا العالم الميؤوس منه، يقابل المرء أحيانًا من لديه قلب ثمين كتلك الفتاة. لا يمكننا خداع بصر من يملك مثل ذلك القلب. بمعنى...

قال القط العتابي، ثم التفت إلى الخلف نحو رينتارو وأردف:

- ليس بسبب الإحساس بالمسؤولية أو الواجب، تقلق تلك الفتاة عليك قلقًا حقيقيًّا.

كان لهب الشموع يتراقص مع كلمات القط بالرغم من انعدام الرياح.

ثمة أشياء ينتبه المرء إليها من جديد عندما تُقال له.

تذكر رينتارو فجأة عدد مرات زيارة سايو له في مكتبة ناتسوكي. اقتربت تلك الصور من قلبه واحدة بعد أخرى وفيها معانٍ كبيرة.

- إذا كنت تقلق عليها الآن قلقًا حقيقيًّا، فقد بدأتَ تسترجع قلبك المفقود. ليس القلب الذي يجعلك تفكر في أمر نفسك فقط، بل «القلب الذي يتعاطف مع مشاعر الآخرين».

- قلب يتعاطف مع مشاعر الآخرين.

- صديقة رائعة لشخصٍ ضعيف وجبان مثلك.

قال القط بطلاقة كما هي عادته، مع ابتسامة خفيفة بدت على أطرافه.

رفع رينتارو عينيه ونظر إلى السقف العالي.

هناك بعيدًا فوق الرأس، سقف يتألف من قبة ترسم قوسًا بانحناءة لطيفة الميل، جمال وسكينة يلفان المكان كأنه كاتدرائية قديمة تتالت عليها السنوات الطويلة.

- ثمة أشياء كثيرة يظن الإنسان أنه يعرفها، إلا أنها لا تُرى بالعين.

- إدراك هذا وحده دليل نموٍّ ونضج.

- أشعر بقليل من الشجاعة.

- القليل لا يكفي.

قال القط ذلك بصوت أجش:

- والخصم الأخير شرس وعنيد حقًّا.

قبل أن ينتهي القط من كلامه ظهرت أمامهما بوابة ضخمة مصنوعة من الخشب.

بوابة عملاقة تسد الطَّريق عليهما بمهابة إلى درجة أن ذراع رينتارو لا تستطيع فعل شيء حيالها، ولكن حين اقتربا منها بدأت تنفتح بشكل تلقائي وهي تصدر صريرًا خافتًا.

فُتحت البوابة على مصراعيها يمينًا وشمالًا ببطء شديد، وبدت على الجانب الآخر منها حديقة خضراء واسعة جدًّا.

أشجار وافرة تحت أشعة شمس باهرة، ونوافير بيضاء ترتفع مياهها رقراقة نحو السماء هنا وهناك، إلى جانب النوافير تماثيل ملائكة، وثمة توازن جمالي رائع بين السور الشجري المُقلم بعناية وبين الأرضية المبلطة بأحجار ذات تصاميم هندسية بديعة.

وقف رينتارو والقط فوق تلة عالية تشرف على ذلك كله، في مكان يشبه رواق سيارات كبير. على اليمين والشمال فوقهما سقف أبيض، يرسم منحنى طفيفًا، ثم يتصل بمسار سيارات مرصوف بالأحجار، كان المشهد يوحي بأنهما خرجا من مبنى غربي عملاق على طراز العصور الوسطى.

- اهتمام شديد بالتفاصيل.

همس القط، وفي اللحظة ذاتها، سُمع صوت طقطقة

عالية، وحين نظرا إلى اليمين كانت هناك عربة يجرها جوادان تقترب منهما على طريق حجري.

وصلت العربة إلى مكانهما، ثم توقفت، فنزل من مقعد الحوذي رجل أنيق في بدايات المشيب، وانحنى لهما انحناءة عميقة بصمت، ثم فتح لهما باب العربة.

- يعني: هيا اركبا.

قال القط، ثم اقترب من العربة، وقفز راكبًا بلا خجل، بقي الرجل الأنيق محني الرأس كما هو دون حركة. اقترب رينتارو من العربة بحذرٍ وصعد.

كان صالون العربة واسعًا على غير المتوقع، وقد فُرش بقماش مخملي وردي اللون. جلس القط ورينتارو على مقعدين متقابلين، أغلق الباب بخبطة عالية، ثم تحركت العربة بُعيد قليل.

- ما هذا الإخراج المسرحي؟

- يرحّب بك.

- للأسف لا أعرف صديقًا له مثل هذا الفضول.

- حتى لو كنت لا تعرف، فالأمر مختلف بالنسبة إلى الطرف الآخر. على غير المتوقع أنت مشهور في هذا العالم.

- هذا العالم؟

- بل لصاحب هذه المتاهة وجود متميز، وله على أرض الواقع مثل هذه القوى الكبرى.

ـ حسنًا، وهل يجب عليَّ أن أذرف الدموع من التأثر؟ وأقول له: شكرًا على دعوتك الكريمة إلى درجة اختطاف صديقتي الوحيدة.

ضحك القط خفية.

ـ هذا تفكير جميل، وأفضل سلاح للبقاء على قيد الحياة في عالم غير عقلاني ليست قوة المنطق ولا القوة العضلية.

ـ تقصد الفكاهة.

اهتزت العربة بشكل خفيف تمامًا عند إجابة رينتارو، ثم زادت سرعتها، دخلت الآن على طريق رئيس. وحين نظر خارج النافذة كانت الحدائق الواسعة تمضي جارية خلف ظهره.

وبالرغم من أنَّ كل شيء كان ممتعًا، أشعةُ شمسٍ ونسيمٌ ورذاذ نوافير، إلَّا أنَّ هناك شيئًا شاذًّا.

اكتشف رينتارو بحدسه المباشر أنه نتيجة انعدام الكائنات الحية.

ليس انعدام البشر فقط، بل جميع أنواع الطيور والفراشات، لم يشعر بوجود ذرة واحدة من الحياة التي يقوم عليها هذا العالم، إنه عالم غير حقيقي، مهما تجمّل من الخارج.

- هذه آخر فرصة أتحدث فيها معك.

قال القط فجأة بصوته الأجش.

عاد رينتارو بعينيه من الخارج إلى داخل العربة.

- يبدو أنني سمعت كلامًا يشبه ذلك في المرة السابقة.

- لا داعي للقلق.

فوق الفراش الوثير المصنوع على الطَّريقة التقليدية، نظر القط بعينيه الخضراوين إلى رينتارو مباشرة.

- هذه المرة هي الأخيرة حقًّا.

- إذا كان الأمر كذلك، فلدي الكثير مما أريد أن أسألك عنه.

لم يجب القط على كلامه، بل ظل يحدق إليه ثابتًا دونما حركة.

صمت رينتارو لحظة، ثم ابتسم ابتسامة مرة.

- ولكن لا أعرف من أين أبدأ.

بقي القط راسخًا كالصخر في جلسته.

جانب وجهه الذي تعرض لأشعة الشَّمس المشرقة، راح يأخذ بالتدريج اللون الأرجواني، ثم ما إن مضت لحظات قصيرة على تفكيره في ذلك، حتى بدأت الشَّمس خارج النافذة تتحول من الغروب إلى الليل فجأة، فغرق صالون العربة الصَّغير في ظلام دامس.

نظر رينتارو إلى السماء، فوجد النجوم قد بدأت في الوميض متلألئة واحدة بعد أخرى.

ـ للكتب أرواح.

تحدث القط فجأة، كانت عيناه تلمعان بشكل جميل وهما تتلقفان ضوء النجوم.

- وجود الكتب في هذا المكان يجعلها رزم ورق لاغير. التحف الثمينة حاوية الكنوز، والأعمال الضخمة حاوية الملاحم العظيمة، إن لم تُفتح وتقرأ، هي في النهاية قصاصات ورق لا أكثر. أما الكتب التي استمر النَّاس في الاعتناء بها، وامتلأت بمشاعر إنسانية، فقد وهبت أرواحًا تسكن فيها.

- أرواح؟

أجل، أجاب القط بصوت قوي.

- حاليًّا، قلّتْ فرص قراءة الكتب، ونادرًا ما يغرق النَّاس فيها بمشاعرهم، فكانت النتيجة أن فقدت الكتب أرواحها بالتدريج، ولكن ما زال أمثالك وأمثال جدك، على قلتهم، يحبون الكتب من أعماق قلوبهم ويصغون إلى كلماتها باهتمام.

رفع القط رأسه ببطء، ونظر عاليًا إلى السماء المرصعة بالنجوم.

- أنت صديق لا بديل عنه لنا جميعًا.

كلمات كثيرة وعجيبة، ومع ذلك تغلغلت جمعيها واحدة بعد الأخرى داخل صدر رينتارو.

لمعت عينا القط الخضراوان وهما تنظران إلى سماء الليل.

تفيض روحه ثقة بالنفس، مع شيء من الغطرسة، بيد أنَّ ذلك جميل. هو هكذا قط بهذه المواصفات.

- أشعر أنني أعرفك منذ زمن بعيد.

لم يلتفت القط إلى كلمات رينتارو المفاجئة، أما أذناه المخروطيتان الجميلتان، فكانتا تنتظران كلماته التالية.

- حقًّا، أعتقد أن ذلك منذ عهد سحيق القدم. حين كنتُ طفلًا...

تأمل رينتارو السقف وكأنه يبحث في ذاكرته.

- سبق أن قابلتك داخل حكاية قصيرة. ربما كان كتابًا قرأته لي أمي.

- للكتب أرواح.

أعاد القط كلمته السابقة في هدوء.

- أرواح تسكن الكتب التي نالت عناية واهتمامًا، وإذا ما وقع صاحبها في مأزق تسرع إليه بالضرورة وتساعده.

تغلغل ذلك الصوت الأجش الهادئ إلى أعماق رينتارو، فملأه دفئًا. وحين نظر إلى القط فجأة لمح ابتسامة خافتة تحت أضواء النجوم.

- كما قلت لك: لستَ وحيدًا.

أسرعت عربة الجياد التي تقل رينتارو ورفيقه وهي تهتز بشكل خفيف تحت سماء تطرزها النجوم.

ومع تقدم عربة الجياد في السير، أخذت أضواء النجوم تنتقل بصمت عبر النافذة إلى داخل الصالون المخملي. وحين سقطت تلك الأشعة الشاحبة على القط العتابي اختفت ابتسامته فجأة، ولمعت عيناه ببريق حاد.

- ولكن «الكتب التي تسكنها الأرواح» لا تقف جانب البشر على الدوام.

قطب رينتارو حاجبيه، ثم سأل على الفور:

- أتقصد يوزوكي؟

- أجل، هذه هي المتاهة الأخيرة.

نظر القط مجددًا إلى النافذة.

فتبعته عينا رينتارو.

نجوم السماء جميلة جمالًا ساحرًا، ولكن ترتيبها مزيف، وليس لها شكل أي برج من الأبراج.

- تُشوَّهُ أحيانًا أرواح الكتب مثلما تشوه أرواح البشر في نهاية المعاناة. الكتب التي تتداولها أيدي البشر ذوي الأرواح المشوهة تؤول هي أيضًا إلى أن تشوه أرواحها، ثم تهيم على وجهها في البرية.

- أرواح الكتب تتشوه...

أومأ القط العتابي برأسه إيماءة كبيرة.

- لاسيما الكتب العتيقة التي لها تاريخ طويل، تأثرت

بأرواح كثير من النَّاس، ولها قوة جبارة بصرف النظر سواء أكان ذلك خيرًا أم شرًا. وعندما يكون لهذا النوع من الكتب روح مشوهة...

تنهد القط تنهيدة كبيرة، ثم تابع حديثه:

- تتصرف بقوة هائلة جدًا لا يمكن مقارنتها بي على الإطلاق.

- لقد بدأت أفهم قليلًا معنى أن الخصم هذه المرة يختلف كليَّة عما سبق حتى الآن.

كانت نبرة إجابته تتميز ببرود أعصاب وهدوء على غير المتوقع. وفي الواقع، كان رينتارو نفسه هادئ القلب إلى درجة عجيبة.

تغير المشهد خارج النافذة.

كانت العربة تسير في حدائق بالغة الاتساع، بينما يبدو الآن منظر ليلي لمبان في مدينة قديمة. منزل أهليٌّ مؤلَّف من طابقين، دراجة هوائية مسنودة على سور، ومصابيح شوارع تتلألأ بلون أصفر كئيب، وماكينات البيع الآلي القديمة تبدو طافية بلون أبيض.

مناظر شاهدها رينتارو من قبل.

- عفوًا أيها الوريث.

حنى القط العتابي رأسه بشكل كبير.

- لا يمكنني التَّعامل مع هذا الخصم.

- لا داعي للاعتذار.

ابتسم رينتارو ابتسامة مرة.

- أشكرك على كل شيء.

- في النهاية، لم أفعل شيئًا، لقد وصلتَ إلى هنا بقوتك.

- مع ذلك...

عندما قال رينتارو ذلك، باتت اهتزازات العربة هادئة كأنها تقلل من سرعتها.

- مع ذلك جعلتني أنتبه إلى الكثير من الأمور المهمة.

وهنا اهتزت العربة هزة كبرى، وتوقفت.

مضت لحظة قصيرة، ثم فُتح الباب.

وفي الوقت ذاته، هبت على العربة من الداخل رياح باردة جعلت عمود رينتارو الفقري يرتعش من البرد.

وعندما نظر إلى الخارج، كان الحوذي مطأطئ الرأس بأدبٍ زائد، وخلفه منظر يعرفه رينتارو جيدًا.

نزل رينتارو من العربة ببطء دونما ارتباك، ثم توقف. نظر إلى الخلف، فوجد القط العتابي داخل العربة المظلمة، ساكنًا لا يتحرك يرسل من عينيه الخضراوين شعاعًا هادئًا.

- ألن تأتي معي؟

- لا ضرورة لذلك، فأنت الآن قادر على التَّعامل مع الموقف.

ابتسم القط ابتسامة جميلة.

- تقدم يا رينتارو ناتسوكي!

- أول مرة تناديني باسمي.

- هذا اعتراف مني بك، الروح المشوة قوية، ولكن...

توقف القط لحظة عن الكلام، ثم أكمل على الفور.

- ولكنك أقوى.

أثرت فيه هذه الكلمة بقوة.

كلمة تشجيع مؤكدة تُقال لصديق يعرفه جيدًا.

هز رينتارو رأسه، بينما يسيل شيء بارد على ظهره. إلى هذه الدرجة تهب من خلفه رياح باردة يصاحبها شعور غير مريح، ومع ذلك، لم يشعر بالرغبة في الهروب، فهو يدرك أنه موقف يستحيل الهروب منه.

- هل سنتقابل مرة أخرى؟

- توقف عن هذا، إنها كلمات وداع مبتذلة.

رد قاس يليق تمامًا بهذا القط.

- الوداع! أيها الصديق الشجاع!

كانت هذه الكلمة غير المزخرفة هي كلمة الوداع الحار.

أخفض القط رأسه قليلًا بهدوء، فانحنى له رينتارو مجددًا انحناءة من القلب.

مرت لحظة، فاستدار رينتارو، وأعطى ظهره لعربة الجياد، وبدأ السير.

أمام عينيه حارة ضيقة، وخلفها بقليل عمود إضاءة قديم أنواره صفراء اللون يقبع تحته بيت صغير، وحين دقق النظر وجد لوحة خشبية تتدلى فوق باب مصنوع من شبكة من الخشب كُتب عليها بأدب بالغ: «مكتبة ناتسوكي».

مشهد صُنعت تفاصيله بمهارة.

ولكن رينتارو لا يُبطئ خطواته.

مهما صُنع المشهد بمهارة، فالمزيف مزيف.

ما من قمر في سماء الليل، وما من نباتات على الأرض، وما من إضاءة في نوافذ البيوت المجاورة. يندر وجود مثل هذا المنظر الذي لا يُريح القلب.

واصل رينتارو المشي في خط مستقيم وسط هواء بارد متوتر، وأخيرًا وصل أمام درجات السلالم الحجرية التي أمام مكتبة ناتسوكي.

كان خلفُ الباب الشبكي الذي ألف رؤيته، هو المكان الوحيد المضاء بوضوح.

- تفضل بالدخول!

فجأة تردد صدى صوت

صوت نسائي رابط الجأش.

وفي الوقت ذاته، أخذ الباب ينفتح ببطء.

*

- مرحبًا بك يا رينتارو ناتسوكي اليافع.

صوت رتيب بلا تنغيم في أرجاء الغرفة.

وبالرغم من قول أرجاء الغرفة، فهي مكتبة ناتسوكي التي اعتاد رينتارو رؤيتها دائمًا.

ولكن الوضع مختلف للغاية.

فرفوف الكتب الكبيرة التي تغطي الجدران على الجانبين، ليس عليها كتاب واحد. فضاء فظيع بدت المكتبة بفضله متسعة اتساعًا مريبًا.

وفي المنتصف أريكتان عظيمتان متقابلتان، وهذا أيضًا لم يكن في المكتبة الأصلية، وثمة ظل صغير لإنسان في الأريكة التي تواجه الباب.

تردد رينتارو قليلًا؛ لأن الجالس على الأريكة كانت امرأة نحيفة في بداية المشيب.

تغرق بجسدها الصَّغير فوق الأريكة الكبيرة، وهي ترتدي ملابس سوداء بلا زينة واضعة ساقًا فوق ساق باسترخاء. تضع يديها البيضاويين الطويليتين فوق ركبتيها المتصالبتين، وترفع

ناظريها إليه بطريقة من لاحول له ولاقوة أبدًا، ومع ذلك ما من نقطة ضعف يمكن الإمساك بها، وتحيط بها هالة رمادية تجعل الاقتراب منها ليس سهلًا.

حركت المرأة شفتيها النحيلتين دون أن تهتز لها شعرة.

- تُرى ماذا حدث لتابعك القط؟

- طلب مني الذهاب وحيدًا في المتاهة الأخيرة.

- رفيق بارد المشاعر. أم أنه...

وضعت المرأة أصبع يدها اليمنى البيضاء على وجنتها.

- أيستهين بي؟

انتابت رينتارو قشعريرة باردة.

في هدوء تحدق إليه عينان مظلمتان بلا مشاعر، تبدو فيهما خيوط عنكبوت بلا حدود، فأحسَّ بصعوبة في التنفس كأنه يُخنق ببطء، فرجع خطوة إلى الخلف دونما وعي.

من المؤكد أنها تختلف اختلافًا تامًا عن الخصوم الذين حاورهم فيما سبق.

الثلاثة الذين قابلهم حتى الآن، حتى لو كانت لكل منهم غرابته الخاصة، إلَّا أنَّ لهم أوراحًا. أو بالأحرى لدى كل منهم مشاعره الخاصة حيال الكتب، فكانت تلك المشاعر مدخلًا إلى الحوار معه، ونهايته في الوقت ذاته.

ولكن المرأة التي أمام عينيه حائط من الفولاذ، تقذف

شعاعًا صلدًا بلا روح. لا دليل هنا ولا باب، هنا فقط برودة تتكدس بلا قاع.

لو كان رينتارو في وضعه الطبيعي، لربما هرب عند هذه النقطة رافعًا راية الاستسلام مبكرًا. كان الدم يهرب من عروقه وهو يتألم من الوحدة وانعدام الثقة بالنفس، فنظر إلى قدميه بلا وعي، لكن رفيقه القط العتابي لم يكن هناك. يمكنه العثور على عشرة أو عشرين سببًا وجيهًا للهروب.

بيد أنَّ رينتارو وضع قوته كلها في ركبتيه اللتين ترتعشان خفية، وثبّت قدميه في الأرض.

هناك هدف من المجيئ إلى هنا، فالأمر ليس كما حدث من قبل حين جاء تاركًا نفسه في مهب الرياح.

- أهلًا بك في «مكتبة ناتسوكي»

بسطت المرأة يديها فوق ركبتيها بخفة.

- هل أعجبك إخراجي المسرحي؟ من المؤكد أنها كانت رحلة لطيفة.

- جئتُ لكي أستعيد يوزوكي.

ضيّقت المرأة عينيها قليلًا.

ولكنها لم تجب، فأعاد رينتارو الكلمات نفسها ثانية.

تنهّدت المرأة تنهيدة خافتة دون أن تتغير ملامح وجهها تقريبًا.

- تبدو فتى بليد الذهن على غير ما توقعت، تقول كلامًا مفروغًا منه دون أدنى نوع من الإبداع.

- «يمكن للشخص أن يكون صالحًا حتى وإن كان بليد الذهن، ولكن يندر وجود إنسان صالح بين الأذكياء».

- ستاينبيك؟ كلمات لا تستحق الاقتباس.

- كلا، بل إنها كلمات لاذعة الدلالة. وأنت في منتهى الذكاء على ما يبدو.

صُعقت المرأة للحظة، ثم أخيرًا رفعت عينيها الخاليتين من المشاعر نحو رينتارو.

- أتراجع عن كلامي السابق، فأنت تبدو صاحب شخصية مرحة مرحًا ظريفًا، ويبدو أنَّ دعوتي لك إلى هنا ستعود بفائدة.

- لا أفهم القصد بتاتًا ولا الهدف، ولكن هل تفضلين أن أقول لك: «شكرًا»؟

- تبدو نافذ الصبر بخلاف الشائعات التي سمعتها عنك، لقد سمعت أنك أكثر رزانة.

ملاحظة صحيحة تمامًا، همس رينتارو في داخله.

فحتى لو امتلأ قلبه رعبًا، من المدهش أن ذهنه يظل صافيًا جدًا.

وهو ما يعني أنه غاضب.

- أكرر ثانية ما قلت، أعيدي لي يوزوكي. لا أدري ماذا تريدين مني، ولكن لا علاقة لها بذلك.

- ما أريده منك بسيط جدًا، كنتُ أريد التحدث معك فقط.

لهنيهة، عجز رينتارو عن إيجاد كلمات حيال هذا الرد الذي لم يتوقعه.

- إذا كنت تريدين التحدث معي فيكفي أن تدعوني أنا فقط، اختطاف يوزوكي ليست هي الطَّريقة العادية. إذا كان لديك الوقت لإرسال عربة جياد تأخذني إلى الحدائق وما حولها من النوافير، وأنت تجلسين متعجرفة فوق هذه الأريكة العظيمة، فكيف لم يكن لديك الوقت للمجيء بنفسك إلى مكتبة ناتسوكي. ألم يكن ذلك أفضل؟ كنت سأعد لك كأسًا من شاي آسام الذي ورثته عن جدي.

- ليس معنى هذا أنني لم أفكر في ما تقول، ولكن لو زرتك فجأة، فلن تأخذني بجدية، أليس كذلك؟

- ... بجدية؟

- أريد أن أتحاور معك بجدية. ولا أريد إجابات سهلة غايتها التخلص من الموقف الصعب، ولا سلوك كسول يتخفى في المجاملة والتأدب. أريد أن أرى فتى يعشق الكتب عشقًا حقيقيًّا وهو يتحدث عنها بجدية.

رفعت المرأة طرفي شفتيها إلى الأعلى قليلًا، ابتسامة جميلة،.. جميلة... ولكنها ابتسامة ثلجية تفتقد إلى الدفء تمامًا.

ارتعش رينتارو كأن يدا صنعت من الثلج لمست قفاه،

واصل كلامه كأنه يحاول أن يقهر عنوة جزءًا ضعيفًا داخله بدأ يستعد للهروب الفوري.

ـ سأعيد مرة أخرى، هل اختطفتِ يوزوكي فقط من أجل التحاور معي؟

- أجل، وموقفك الآن يدل على صحة طريقتي.

أخذ رينتارو نفسًا عميقًا.

يتجه الحوار في الاتجاه الذي يريده الخصم تمامًا وهو لا يدري سواء أكان هذا سيئًا أم جيدًا؟ ولكن ليس جميلًا ألا يسيطر على مشاعره، وألا يفكر بأعصاب باردة، سيما إذا أراد الخصم الحوار معه بجدية.

يبدو أنَّ المرأة غير راضية عن صمت رينتارو المفاجئ، لكنها مدت يدها اليمنى بهدوء، وأشارت إلى الأريكة التي أمامها.

نظرت إلى رينتارو الذي بقي صامتًا لا يتحرك، ثم لوت رأسها قليلًا.

- أم لعلك تريد الجلوس على هذا المقعد؟

فرقعت بإصبعين، فاختفت الأريكة كأنها تبخرت في الهواء، ثم ظهر هذه المرة كرسي مدوّر خشبي صغير. الكرسي المدوّر القديم الممتلئ بالكدمات الذي يستخدمه رينتارو في مكتبة ناتسوكي دائمًا.

على الرغم من اهتمامها بالتفاصيل الدقيقة في إخراجها

المسرحي، إلا أن رينتارو لم يشعر بذرة دفء في مجاملتها له، فذلك لا يعني أبدًا اهتمامًا بالفتى الشجاع المستميت للوقوف على قدميه. أحس أنها تعرف أن تلك هي الطَّريقة الأقصر للوصول إلى هدفها.

أدرك رينتارو انعدام الفائدة من المقاومة، فجلس على المقعد في صمت.

- ماذا تريدين مني أن أقول؟

- يا لك من فتى متسرع! ولكني لا أكره هذا السُّلوك من شاب خائف على صديقته.

تحدثت المرأة بسلاسة، ثم فرقعت بالإصبعين مجددًا.

- هل يمكن أن نشاهد معًا هذا العرض أولًا؟

ظهرت فجأة شاشة عرض بيضاء كبيرة أمام رف الكتب على يمينه، وفي الوقت ذاته أظلم المكان، فبدأت الشاشة تلمع بأشعة زاهية.

- في البداية المكان الأول...

مع صوت المرأة برزت على الشاشة بوابة مهيبة، ثم سور حجريّ بُنيّ. ولم يمضِ وقت طويل حتى أخذ رينتارو، يبحث في ذاكرته أين شاهد هذا المنظر من قبل، فتخطت الكاميرا البوابة، ودخلت إلى مبنى واسع.

تقدمت الكاميرا من البوابة اليابانية الطراز إلى داخل المبنى، ثم اجتازت ممرًا تتراص فيه أعمال مجهولة الجنسية

كلوحات رسم بالحبر الصيني، وغزلان محنطة، وتماثيل لڤينوس، وأخيرًا ظهر على الشاشة رجل يجلس وحيدًا على حافة صغيرة مطلة على الحديقة.

عندما قابله رينتارو كان يرتدي بدلة ناصعة البياض، ولكنه الآن يرتدي قميصًا مجعدًا يتأمل الحديقة في شرود. خفّ تمامًا صخب الغرور الذي يرافقه عند ثقته بنفسه، لا يحرك ساكنًا، بل يتأمل بصمتٍ سمك الشبوط السابح في بِركة الحديقة. جواره عدد قليل من الكتب. بدت على أغلفتها التجاعيد ربما بسبب إعادة قراءته لها مرارًا.

- هل عرفته؟

- المتاهة الأولى.

- أجل، وهذا المنظر هو نتيجة إطلاقك سراح الكتب.

قطب رينتارو حاجبيه لما قالته.

- تحررت كل الكتب السجينة، وتوقف هذا الرجل عن قراءة الكتب باندفاع كما كان في السابق، فتعجب الكثيرون لما حدث من تغيير مفاجئ للناقد حاد الذكاء الذي كان يقود المجتمع بصفته رجلًا قرأ خمسين ألف كتاب، وخاب أملهم فيه، وفقدوا الاهتمام به على الفور. والمكانة التي بناها لنفسه سلبها منه رجل ظهر بعده قرأ ستين ألف كتاب، وأصبح الآن يعيش في الظل تمامًا. فقد مكانته ومجده، فراح يعيش هكذا في شرود متأملًا الحديقة.

لم يجد رينتارو ما يقول لها، فتأملته بلا مشاعر.

وأخيرًا، أشارت المرأة هذه المرة إلى الشمال، فظهرت شاشة عرض جديدة أمام رف الكتب المقابل.

- لنرَ التالي.

مع هذا العبارة ظهرت على الشاشة قاعة عملاقة تصطف فيها أعمدة دائرية بيضاء. سقف ضخم بقبة مقوسة مهيبة وأرضية مبلطة بأحجار مصقولة. تحتوي كتبًا بلا حدود في رفوف الجدران، وتنفتح مداخل لسلالم وممرات دقيقة هنا وهناك.

لا داعي لذكر أنها المتاهة الثانية.

ولكنَّ هدوءًا قاتلًا بات الآن يسود الممر العملاق الذي كان يمتلئ بعددٍ غير محدود من أصحاب المعاطف البيضاء يروحون ويجيئون حاملين كثيرًا من الكتب، ليس هذا فقط، بل كانت الكتب متناثرة هنا وهناك، مما قد يعني أنَّ المكان أضحى خرابًا.

في الممر الذي ينعدم فيه أي أثر للبشر ثمة ظل صغير لشخص واحد فقط. اقتربت الكاميرا منه بحركة مفاجئة وسريعة. أمام طاولة وُضعت جوار رفٍّ عملاق للكتب، يجلس باحث بدين مكوّر الشكل يرتدي معطفًا أبيض.

ذلك الباحث متوسط العمر الذي كان شعلة نشاط وحيوية، ويقوم بأبحاثه في مكتبه تحت الأرض حين زاره رينتارو ورفيقاه، يجلس الآن متكومًا على نفسه في ركن القاعة العملاقة

كأن روحه قد تبخرت، وحيدًا تمامًا، يطيل لحيته، يحدق بعناد في كتاب صغير بين يديه.

- هذه الباحث العبقري الذي ابتكر طرقًا عديدة للقراءة السريعة واحدة بعد أخرى استجابة للعصر، ترك الآن البحث والابتكار بالكامل، وراح يغرق في كتاب واحد ساعات طويلة. العبقري الذي كان يقرأ عشرة كتب في يوم واحد، بات إنسانًا عاديًا يستغرق شهرًا في قراءة كتاب واحد. ومؤلفاته التي هيمنت على جيل كامل لا تُباع أبدا، وتلاشت طلبات إلقاء المحاضرات التي كانت لا تتوقف.

- ما الذي تريدين قوله؟

- أتحدث عن الاختلاف بين المثالية والواقع، ولكنني لمَّا أنته بعد.

أشارت يد المرأة إلى السقف.

وعلى حين غرة، ظهرت فوقه شاشة العرض الثالثة، وعرضت ناطحة سحاب عملاقة.

لا داعي الآن لذكر أنها المتاهة الثالثة.

دخلت الكاميرا المبنى الرمادي العملاق، ثم اجتازت ما في داخله مجددًا، وعرضت غرفة رئيس الشركة الكبيرة التي يتذكرها رينتارو بنوافذها المطلة على ثلاث جهات، يُفترض أنها نفس الغرفة، ولكن الانطباع مختلف تمامًا عما كانت عليه وقت زارها رينتارو ورفيقاه. اختفت الثريا البراقة، ولم تعد تُرى

السجادة فاقعة الحمرة، وزالت مجموعة الأرائك، وغدت في منتهى البساطة والتواضع. الآن وفي هذه المساحة الواسعة، تتجلى بواكير صخب لتجمع رجال يرتدون بدلات: حمراء، وزرقاء، وسوداء.

«ستفلس الشركة بهذا الوضع».

صرخ رجل ببدلة حمراء.

«يجب التوقف عن نشر الكتب التي لا تحقق مبيعات».

«كنتَ يا سيدي الرئيس تقول: إنَّ القراء يريدون كتبًا سهلة الفهم تحقق لهم الإثارة».

يصرخ في غضب رجال ببدلات سوداء وزرقاء واحدًا بعد آخر، على رجل مهذب صغير الحجم في بداية الشيخوخة. رئيس الشركة الذي كان عنيدًا لا يلين، ينكس الآن رأسه طوال الوقت، ويضع يده على شعره الأبيض.

- رئيس الشركة غيّر السياسة، فالكتب التي لا تحقق مبيعات على الفور توقف عن طباعتها، وأعاد طباعة عددٍ من الكتب الثمينة كانت مفقودة بالفعل، ونتيجة لذلك مالت الشركة التي كانت ناجحة بدرجةٍ كبيرة إلى الانهيار، ويُطالب رئيسُها الآن بالاستقالة.

أعادت المرأة نظرها من السقف إلى رينتارو، وقالت له بصوتٍ بارد.

- هذه هي نتائج مغامراتك اللطيفة، ما رأيك؟

ـ أمر فظيع.

كانت تلك الإجابة أقصى ما يستطيع.

على الرغم من أنَّ هواء الغرفة كان باردًا إلى درجة القشعريرة، كان العرق يتصبب ليصل إلى ظهره، وشعور باختناق يشبه الرغبة بالتقيؤ يملأ صدره بالتدريج.

ـ لقد غيرت كلماتك ظروفهم تغييرًا كبيرًا، ولكن يا تُرى هل هذه نتيجة سعيدة؟

ـ لا تبدو عليهم السعادة أبدًا.

ـ هل يعني ذلك أنَّ ما فعلتَه كان فظيعًا؟

ـ ما الذي تريدين قوله؟

ـ لا أريد أن أقول، أريد أن أسمع.

عاد إليه الرد هادئًا جدًا.

تجلس المرأة على الأريكة وتنظر إلى رينتارو بعينين بلا روح.

ـ ليست لديَّ إجابة جاهزة عما هو صواب أو خطأ، أيحسن القول: إنني دعوتك لأنني لا أملك إجابة؟ لقد واجهتَ هؤلاء الثلاثة من أجل إنقاذ الكتب، ثم تبادلت معهم الحوار بعزيمة لا تلين، وأحدثت تأثيرًا كبيرًا في فلسفة الحياة التي يؤمنون بها، وغيرت من قيمهم تغييرًا كبيرًا، ولكن النتيجة كانت أن ساءت أوضاعهم جميعًا بوضوح شديد. ماذا يعني ما فعلتَه لهم وقد أفضوا إلى تلك المعاناة؟

لم يفكر في هذا السُّؤال من قبل.

أيحسن القول: إنه لم يتوقع ذلك؟

لقد أبلغهم بمشاعره فقط، ولم يكن يأمل أن يقع تغيير هائل نتيجة لذلك. والأحرى أنه لم يتخيل أن يُعرض أمامه تغيير واضح لتلك الصورة، ولم يفكر قط أن أحدًا سوف يتعذب، ويعاني نتيجة أفعاله.

نظر إلى الشاشات الثلاث في حيرة.

- ألا ترى أنه عالم حزين؟

كانت المرأة تجول بعينيها في الفراغ كأنها تنظر إلى مكان بعيد.

- يزين الإنسان نفسه بالكتب، ويخزن داخله المعلومات بخفة، ثم يرميها بعد قراءتها. ويظن أن تراكم الكتب فوق بعضها يجعله ينظر إلى مدى أبعد. ولكن...

نظرت المرأة إلى رينتارو بعينيها الجميلتين، الجافتين مثل كرة من البلور.

- هل هذا جيد حقًّا؟

تحدق إليه بهدوء وهو مرتبك حائر.

لا يستطيع أبدًا قراءة مشاعرها من عينيها، حيث تتماوج أشعة غامضة. ولكنها بلا مبالاة تنتظر إجابة كأن ذلك حقها الطبيعي.

ـ لماذا...

عصر رينتارو مخه أخيرًا، وأخرج تلك الكلمة.

ـ لماذا تسألينني أنا هذا السُّؤال؟

ـ أجل، تُرى لماذا؟ ظننتُ أن لديك إجابة رائعة.

ـ مستحيل، فأنا طالب عادي أعيش منعزلًا.

ـ ولكنك من أجل إنقاذ الكتب بذلت كل جهدك في أماكن عدة، ونجحت في إنقاذها حقًا.

رفعت المرأة بهدوء خصلة الشعر من على جبينها.

ـ تقريبًا، لم نعد نرى هذه الأيام شخصًا مرتبطًا بالكتب بهذه الطَّريقة.

ـ شخص مرتبط بالكتب...

ـ أجل، أمثالك أنت وجدك يعدون على الأصابع. بالرغم من وجود مثل هؤلاء النَّاس بكثرة في الماضي، إلا أن كل شيء تغير خلال ألفي عام.

للحظة شك رينتارو في أذنيه اللتين سمعتا هذا الكلام الذي لم يعتده، وعندما أدرك أنه لم يسمع خطأ أصيب بالذهول.

ـ

ألفا عام...؟

ـ ربما تكون الدقة ألف وثمانمائة عام تقريبًا. أي: عندما ولدتُ أنا، لقد مر زمن طويل جدًّا كلمح البصر.

لم يجد رينتارو كلمات يرد بها.

كان لوزن كلمة القط التي قالها له «للكتب قوة هائلة» بُعدٌ لا يستطيع تخيله مطلقًا. فمن النادر وجود كتاب عاش هذا الزمن المديد ليصل إلى ألف وثمانمائة عام. سيكون كتابًا ذا «قوة هائلة» إذا ما تخطى ذلك الزمن كله، وحتى رينتارو الذي لا مثيل له في حب الكتب ليس في ذاكرته مثال تقريبًا.

واصلت المرأة نسج كلماتها بطلاقة دون مُبالاة برينتارو المصاب بالذهول.

- في الماضي كان طبيعيًّا أن يكون للكتب أرواح، يعرف ذلك من يقرأون الكتب، ويتبادلون الدعم والتعاطف معها. آنذاك لم يكن الكثير من النَّاس يمكنهم الحصول على الكتب، ولكن من كان يلتقيني مرة، ويتعاطف من قلبه معي، كنت أرد له التعاطف والدعم بالمقابل. عصور أشتاق إليها كثيرًا. وفي الوقت ذاته عصور في منتهى التألق.

- هل هذا الأمر...

قاطعت المرأة بهدوء صوت رينتارو فاقد الروح.

- ربما يصعب عليك التصديق، تقريبًا لا مجال الآن للقاء كتاب له روح. ليس هذا فقط، بل لم يعد أحد يعرف أن للكتب أرواحًا. وباتت الكتب مجرد رزم من الورق فوقها حروف مطبوعة. ولا يقتصر هذا على الكتب الكثيرة التي تُرمى بعد القراءة، بل حتى أنا من تخطت السنين الطويلة، وقُرئت في كل

أنحاء الأرض، من النادر الآن أن ألتقي بمن يقرأني باهتمام وجدية. الآن أُمدح مديحًا براقًا من نوع «الكتاب الأكثر قراءة في العالم»، ولكن في الواقع لم يعد يلتفت إليَّ أحد، بل أُسجن، وأُمزق، وأُباع. ما شاهدته بنفسك يحدث لي أيضًا، أنا من تخطيت حاجزًا يقترب من الألفي عام، وتخطيت كذلك حاجزًا يفوق الألفي لغة.

أغمضت المرأة عينيها كأنها تتحمل آلامًا.

ثم تحركت الشفتان النحيلتان.

- سأتكلم بصدق، حتى أنا بدأت أفقد قوتي بالفعل، فبالرغم من حواراتي مع الكثيرين في الماضي حول أمور مهمة عديدة، بدأت أنسى ما كنت أحكيه لهم، وإن نسيتُ تمامًا سأغدو مجرد حزمة ورق تقدم معلومات وترفيها مثل باقي الكتب الصَّغيرة.

فتحت المرأة عينيها مجددًا.

- أمر محزن جدًّا، كنتُ أهتم جدًّا بأفكارك في هذا العالم الحزين، ولماذا قمتَ برحلاتك في متاهات عديدة؛ لأنك مشهور في عالمنا.

لم يستطع رينتارو أن يحكم هل كانت آخر كلمة هي مزاح على طريقتها الخاصة أم كانت تخبره بالحقيقة المحضة، ولكن المؤكد هو ما يحمله السُّؤال من ثقل.

ظل رينتارو صامتًا ينظر إلى قدميه.

لا يملك ما يرد عليها بسهولة، ولكن شيئًا ما يموج داخله يحدّثه أن الصمت ليس في صالحه.

وضع رينتارو يده اليمنى برفق على إطار نظارته، ثم أغمض عينيه.

وحين أغمض عينيه وهو جالس على الكرسي الخشبي المدور الذي اعتاده دائمًا، استعاد هدوءه كأنه داخل مكتبة ناتسوكي.

على الرغم من وجوده داخل مكان مزيف، إلَّا أنَّ روح رينتارو عادت إلى مكتبة الكتب القديمة التي اعتاد عليها.

رفوف الكتب القديمة عليها آثار السنين، المصابيح تعبق بذكريات الماضي، الباب الشبكي يحجب أشعة الشَّمس المشرقة، وجرس الباب الفضي يهتز معلنًا عن دخول الزبائن. مع تتبعه لذاكرته، عادت الكتب التي اعتاد قراءتها تدريجيًّا إلى الرفوف الفارغة. الإخوة كارامازوف، وعناقيد الغضب، وكونت مونت كريستو، ورحالات غوليفر... يحفظ رينتارو عن ظهر قلب وبدقة مكان الكتب التي أعاد قراءتها مرات عدة، كل كتاب على حدة. وفي أثناء متابعته لها في ذهنه بدأ قلبه الهائج يهدأ ويستكين.

- ليست لدي إجابة.

واصل رينتارو كلامه بنبرة متلجلجة، ولكنها جادة:

- غير أن الحقيقة هي أن الكتب أنقذتني مرات عديدة، أنا

سلبي بطبيعتي وأيأس بسرعة من كل شيء، بيد أن وقوف الكتب إلى جانبي في جميع الأوقات أوصلني إلى ما أنا عليه الآن.

ظل رينتارو يحملق طويلًا في الأرضية الخشبية المصقولة، وأخذ يجمع الكلمات التي تطرأ على ذهنه واحدة بعد أخرى.

- طبعًا هناك مشكلات عديدة كما ذكرتِ، ولكن الكتب ليست ضعيفة كما تقولين، وبالرغم من موت كثير من الكتب، أعرفُ بالمقابل كثيرًا منها ظل على قيد الحياة.

عندما رفع رأسه كانت المرأة جالسة دون أن تحرك ساكنًا.

التفت صوب عينيها اللتين لا يُمكنه فهمهما أبدًا وتابع الكلام.

- قال لي جدي: إن للكتب قوة كبرى، أنا لا أعرف شيئًا عن الوضع قبل ألفيّ عام، ولكن حولي الآن كثير من الكتب الساحرة وأعيش بينها كل يوم. لذلك...

- للأسف...

هبت رياح الوحدة الباردة.

رياح خافتة جدًّا، إلا أن لها ثقلًا طاغيًا أوقف رينتارو عن الكلام. وفي لحظة تجمد صوته الحار إلى درجة ما تحت الصفر، وفي تلك اللحظة نفسها قذفته المرأة بتلك الكلمة كأنها تطعنه طعنة الموت.

- خيبتَ توقعاتي وآمالي.

فقد رينتارو القدرة على النطق، فرفع رأسه، وارتعد بشكل مفاجئ.

ظلامٌ دامس يحدق إلى رينتارو.

ظلام عجيب تمدد في أعماق العينين الهادئتين، أهذه مشاعر حزن أم يأس؟ إنها على كل حال مشاعر سوداء تشبه مستنقعًا لا قاع له يستطيع بلع كل شيء، بما في ذلك رينتارو طالب الثانوي الذي لا طاقة له على مبارزتها.

- لا شيء يتغير بالرغبات فقط.

سُمع صوت يلفه إذعان عميق.

- سمعت كثيرًا من المثاليات الطفولية والتفاؤل الفاتر إلى درجة أرهقت أذنيَّ، سمعتها لسنين طويلة ومللتها مللًا حقيقيًّا، ولكن شيئًا لم يتغير.

انخفض الصوت المتسرب من بين شفتي المرأة بالتدريج، وبات ثقيلًا. ورفقة ذلك بدأ يتمدد جو مريب.

عيناها المظلمتان تنداران نحو الفراغ في شرود، ولكنهما لا تريان شيئًا. ساقاها اللتان وضعت إحداهما فوق الأخرى باسترخاء واليدان الرفيعتان فوقهما، شحبتا وبلا حركة، وهي الآن كتمثال غرائبي من الشمع يستند على الأريكة ولا يحرك إلا شفتيه.

لم تعد من تجلس أمامه امرأة، بالرغم من أنها في صورة امرأة، بل «شيء عملاق» يجثم حاضنًا مشاعر سوداء لا يجد لها مصرفًا.

ـ لم أجد من النَّاس حتى الآن إلا استعراضًا وتباهيًا... طمأنينة مؤقتة للهروب من الموقف، وتسوية سهلة لتأجيل المشكلة، وجدال رخيص ضحل من أجل إرضاء الذات. أحيانًا يظهر من ينتبه لأزمة الكتب فيرفع صوته، ولكنه في النهاية لا يستطيع تغيير اتجاه التيار العارم، فيجرفه السيل في الطَّريق، مثلما فقد الثلاثة الذين قابلتَهم مكانتهم نتيجة تغييرهم فلسفتهم.

تنهدت المرأة فجأة تنهيدة صغيرة.

ومع تلك التنهيدة شعر بتراجع بسيط لحضورها الطاغي المتمدد أمام عينيه مباشرة كأنه وحش أسود.

وخف الشعور الطاغي الصامت قليلًا، فاستطاع أخيرًا أن يلتقط نفسًا عميقًا كأنه قد تذكر ضرورة التنفس بعد نسيان، وعلى حين غرة نزت على جبينه حبات من العرق.

- في البداية سمعت شائعة أن فتى عجيبًا عاشقًا للكتب ينقذ الكتب هنا وهناك، فاجتاحتني الآمال أن تنقذني كلماته، لا أطلب الكثير، بل أن أسمع فقط تلميحًا واحدًا أستعيد به قوتي التي فقدتها ونسيتها، ولكن...

أعادت المرأة عينيها المظلمتين نحو رينتارو.

- يبدو أنني أعطيتك حجمًا أكبر من الحقيقة.

رفعت يدها اليمنى البيضاء ببطء.

- ارحل، عُد إلى حياتك اليومية.

ومع حركة يدها، دوى في الخلفية صدى صوت جاف، ثم فُتح الباب الشبكي.

فجأة ظهرت له طريق العودة التي انتظرها بفارغ صبر، ولكن مع ذلك لم يستطع رينتارو حتى أن يرفع وجهه عاليًا، ناهيك عن أن يبادر بالنهوض من على كرسيه. ظل جالسًا في ذهول وسط الصدمة كأنه ضُرب بقوة عاتية وأُسقط على الأرض.

قالت المرأة بصوت أكثر برودة:

- لا ضرورة لبقائك هنا!

ثم نهضت واقفة في هدوء، استدارت بعشوائية، وبدأت تمشي إلى عمق المكتبة كأنها فقدت تمامًا الاهتمام بكل ما حولها.

وحين رفع رينتارو وجهه بصعوبة، وجد بابًا لممر شديد الظلمة والسواد قد فُتح في جدارِ عمقِ المكتبة، لا رفوف كتب، ولا مصابيح، ولا أي شيء، بل ممر مستقيم ومظلم لا نهاية له، رحلت المرأة دون أن تقول شيئًا. يبتعد تدريجيًّا وقع ضربات الحذاء الجاف على الأرضية.

يمكنني العودة إلى البيت...

مر ذلك الشعور الجاف في ذهن رينتارو.

حلل الموقف بهدوء شديد وفرح؛ لأنه يستطيع العودة، إلا أن جسده يرفض أن يتحرك وقلبه حائر كأنه يبحث عن شيء.

تأمل رينتارو ظهر المرأة الذي يبتعد رويدًا رويدًا وهو يسأل نفسه: ما سبب الحيرة؟

هُزم رأيه الذي أكد عليه بكل قواه، وسُخر منه بسبب أفكاره التي يستميت في الدفاع عنها، وبُعثرت كرامته التافهة وطارت في الهواء حرفيًّا، إلا أنه لم يحدث ما يجرحه مجددًا، سينهض هكذا بكآبة ويرحل مهزومًا مدحورًا ويعود إلى حياته اليومية المملة.

ولن يعاني مما حدث في متاهات الكتب التي لا يعرف أصلها من فصلها. ثمة حدود لقدرات طالب ثانوي مثله، ناهيك عن أن يكون فتى منطويًا وكئيبًا بالفطرة يعشق الكتب، حتى لو ذهب إلى بلاد العجائب، فلا يعقل أن يتحول بين يوم وليلة إلى بطلٍ بلا عيب، فأينما ذهب، فحقيقته هي أنه مصاب بالعزلة المجتمعية، ولا مانع من مدحه؛ لأنه أجرى بالرغم من ذلك نقاشات معقدة، وأنهاها لصالحه بنجاح.

حاول رينتارو بمهارة أن يعيد تنظيم قلبه المضطرب بتنظيم الحجج المريحة للنفس من خلال منطق العالم ببواطن الأمور والرضوخ الراسخ للواقع.

لقد عاش حياته حتى الآن كل يوم على هذا المنوال، وحقق نجاحًا جيدًا.

أليس هذا جيدًا؟

إذًا وعليه...

- كلا، ليس جيدًا!

همس رينتارو فجأة بصوت خافت.

تسربت الكلمات من فمه فجأة لدرجة أدهشته هو نفسه.

في لحظة همسه هذا، خطر على باله شيء مهم كاد أن ينساه.

السبب الأول لمجيئه إلى هنا، صُدِم، ثم عاد إلى وعيه كأنه استخرج صندوق كنوزه المهم الغارق في قاع البحر.

- أين يوزوكي؟

رفع رينتارو وجهه عاليًا بطريقة لا إرادية، فأصابته رعدة مرعبة.

فقد اختفت المرأة في الممر المظلم الممتد أمامه، ومع ذلك انتفض بفزع كأنه ينجذب إلى صوت الحذاء الخافت الذي يسمعه بصعوبة.

- انتظري من فضلك.

صرخ بكل قواه في أعماق الممر، ولكن الممر ابتلع صوته، فاختفى. علاوة على ذلك، ظل صوت الحذاء الخافت يبتعد أكثر وأكثر.

- أين يوزوكي؟ أرجوك أن تعيديها لي!

دوّى صوت رينتارو اليائس داخل الغرفة فقط وبلا جدوى، لا إجابة، بل راح يصله بصعوبة صوت الحذاء الجاف كأنه يبتعد عن العالم أجمع.

استدار جهة باب المدخل خلفه وهو في حالة ذهول.

كان الباب الشبكي مفتوحًا على مصراعيه كأنه يقول له: هنا باب الخروج. إذا خرج منه، فمن المؤكد أنه سيجد حياته اليومية التي اعتاد عليها. حياة عادية وكئيبة وخانقة لا تحتاج إلى شجاعة أو كبرياء من نوع خاص...

تخيل رينتارو نفسه جالسًا وسط المكتبة التي تريح أعصابه إلا أنه لم يتحرك.

فلا يكفي أن يرجع من هذه الرحلة سالمًا ببساطة، فهو لم ينسَ هدفه الذي أتى به إلى هنا.

كوّر قبضتيه بشدة، وأغمض عينيه مرة، ثم ولّى ظهره جهة المدخل بعزم وتصميم، وبدأ يمشي إلى الممر شديد الظلمة.

دخل الممر، فصُبغت الجهات الأربع فورًا بلون أسود قاتم، ولم يعد يرى شيئًا، ولم يستطع الركض؛ لأنه لم يكن يرى حتى موضع أقدامه نفسها، فتقدم إلى الأمام معتمدًا على ملمس نعل حذائه الصلب، وعلى وقع الحذاء الذي يُسمع بصعوبة وبشكل منتظم.

يتصبب ظهره عرقًا.

لم يلتفت إلى الوراء؛ ليس لأنه غير متردد، بل لعدم ثقته في أنه سيظل هادئًا إذا لم يجد باب الخروج في مكانه. تستعر في داخله مشاعر سلبية من: الرعب، والندم، والعصبية، وكره الذات، لدرجة أنها على وشك الفيضان الآن والطوفان خارجه. لو فارت مرة، فلن يستطيع التحكم بها، ولذا قرر أن يفكر في أمر مختلف لكي يتحكم بمشاعره.

فكر في حياته المدرسية، واستعدادات نقل السكن، وعمته الودودة، ووجه جده الهادئ والكتب الكثيرة الموضوعة فوق الرفوف، وابتسامة القط العتابي الخجولة، وزملاء الفصل بالابتسامات المرحة على وجوههم...

استمر في المشي محدّقًا في ما أمامه مباشرة.

لا يمكنه رؤية ظهر المرأة، ولكنه يسمع بالتأكيد وقع حذائها، على الأقل لم تبتعد كثيرًا.

بدأ قلبه المضطرب يهدأ تدريجيًّا ويستكين.

وبدأت خطواته التي كانت حذرة خائفة تمتلك قوة إلى حدٍّ ما.

ومع مواصلته للمشي أخذ يتحدث غيرَ موجِّهٍ الحديث إلى أحد بعينه.

- كنتُ أفكر في الكتب باستمرار.

دوّى صدى صوته في الممر المظلم.

لا كلمات تجيبه، فقط هناك وقع حذاء في مكانٍ بعيد ينقش إيقاعًا رتيبًا كعقارب الساعة.

- أفكر في ما هي قوة الكتب؟ ظل جدي يقول طوال الوقت: إن للكتب قوة هائلة، ولكن ما معنى تلك القوة حقًّا؟

وبينما كان يتحدث تولدت في داخله شيئًا فشيئًا حُمّى عجيبة. حرارة كأنها نار مدفونة لا تتوقف عن التوهج بالرغم من محاولات إخمادها بالنفخ عليها بأنفاس باردة كالثلج.

- تمنحنا الكتب أشياء عديدة، كـ: الحكمة، والمعرفة، والقيم، ورؤيةً لفهم العالم. ومن الممتع معرفة شيء أجهله، وكذلك أشعر بإثارة حقيقية لرؤية الأمور بطريقة جديدة تمامًا، ومع ذلك ثمة شيء أكثر أهمية مختلف عن ذلك كله، قوة أكبر من ذلك بكثير.

ظل رينتارو يجتهد في التقاط مشاعره سريعة الزوال، الشبيهة برقائق ثلج تهطل على التوالي متراقصة داخل صدره، ثم يحولها إلى كلمات. استمر منهمكًا في مشيه محدقًا في الفراغ من أجل أن يُبلغها جزءًا بسيطًا جدًّا من الأمور المهمة الكثيرة التي تختفي في لحظة إمساكه بها.

لا يعتقد أنه يملك قوة من نوع خاص.

ولا يفكر مطلقًا في قدرته على التغيير، لكن إذا كان هناك شيء واحد يجيده، فهو الحديث عن الكتب، أي: إنه لم يبلغ بعد كل ما يشعر به من أفكار بدقة.

- ثم واصلتُ التفكير والبحث عن معنى قوة الكتب وعانيت كثيرًا، وأخيرًا شعرت أنني وصلت إلى ما يشبه الإجابة.

توقف رينتارو فجأة، وتوجه جهة الظلام البعيد بالكلام:

- ربما تُعلّمنا الكتب «مراعاة شعور الآخرين»

لم يكن صوته عاليًا.

ولكنه كان يصل من خلال صدى واضح.

وعندما انتبه وجد أن وقع صوت الحذاء قد انقطع.

وسيطر على الممر شديد الظلمة فجأة سكون عميق يبتلع كل شيء.

عبثًا أنعم النظر في الظلام، ولم يستطع رؤية المرأة، ومع ذلك واصل توجيه الحديث إليها، حيث لا بد أنها توقفت عن السير.

- تُعرِب الكتب عن مشاعر وأفكار النَّاس الكثيرة، نتعرف على من: يتألمون، ويحزنون، ويفرحون، ويضحكون..... نتعرف على قلوب الآخرين، ونحس بها من حكاياتهم وكلماتهم. ليس فقط المقربين منا، بل نتعرف من خلال الكتب على مشاعر من يعيشون في عالم مختلف تمامًا عن عالمنا.

يستمر الصمت والسكون.

ولم يعد مرة أخرى صوت وقع الحذاء الذي توقف.

يواصل رينتارو كلامه كأن هذا السكون يحفزه على الحديث.

- ينبغي عدم جرح الآخرين، وينبغي عدم التنمر على الضعفاء، بل ينبغي أن نمد يد العون لمن يحتاجه. ربما بدت تلك الأمور بدهية. ولكنها في الحقيقة لم تعد كذلك. ليس فقط لم تعد بدهية، بل هناك من يستفسر عن السبب. كثيرون لا يعرفون الآن لِمَ لا ينبغي جرح الآخرين؟ وليس من السهل شرح الأمر لهم؛ لأن الأمر لا يُعالج بالمنطق، ولكن إذا قرأوا الكتب سيفهمون. يفهمون بسهولة أمورًا أهم بكثير من التحدث بالمنطق، يفهمون أن الإنسان لا يستطيع الحياة بمفرده.

تحدث رينتارو باجتهاد إلى المرأة التي لا يراها.

ـ أعتقد أن قوة الكتب هي القوة التي تعلّمنا «مراعاة شعور الآخرين». هذه القوة هي التي تمدّ الكثيرين بالشجاعة وتساعدهم.

قطع رينتارو حديثه، وعض على شفتيه، ثم اجتهد في مواصلة الكلام مرة أخرى بقوة طالعة من أعماق أعماقه.

ـ إذا كنتِ أنتِ قد نسيتِ، فأنا سأقولها بأعلى صوت: قوة الكتب هي مراعاة شعور الآخرين!

تردد صدى الصوت بقوة في أرجاء الممر شديد الظلمة، ثم اختفى.

وحين عاد الصمتُ تماما، شعر رينتارو أن الظلام بدأ ينقشع ببطء. كما شعر أن الرؤية ستصبح ممكنة عما قريب، وعندما انتبه وجد نفسه كما كان في البداية في ذلك المكان العجيب الذي يشبه تمامًا مكتبة ناتسوكي.

وجواره مباشرة الكرسي الخشبي الذي كان يجلس عليه قبل قليل، وخلف الأريكة التي أمام عينيه تقف المرأة كأنها في مكانها هذا منذ البداية.

بوابة المدخل مفتوحة على مصراعيها، ولكن في عمق المكتبة، لا يُرى الممر شديد الظلمة الذي مشاه للتو، لا شيء هناك سوى لوح خشبي كجدار. والشاشات التي تعرض المتاهات الثلاث، تعرض الرجال الثلاثة كل على حدة كأن شيئًا لم يحدث، دونما أي تغيير.

هل كان مشيه في الممر شديد الظلام حلمًا؟ لم يكن رينتارو يدري بوضوح أين يبدأ الواقع وأين ينتهي.

ولكن ثمة تغير واحد فقط أكيد.

حالة رينتارو النفسية.

- أنا آسف.

وطأطأ رأسه أمام المرأة.

- قلتِ لي: ارحل، ولكنني لا أستطيع الرحيل بعد؛ لأنك لم تعيدي لي يوزوكي.

تسمّرت المرأة في مكانها دون أن تجيب.

يفتقر شعاع مقلتيها إلى دفء المشاعر بلا تغيير، وفيه كآبة تجعل الناظر إليه يشعر برعدة برد.

ولكن رينتارو لم يضطرب، فللخصم وجود في منتهى الضخامة مقارنة به. ولا يُفترض أن تصل كل مشاعره إليه فجأة، ثم إن هناك معنى لتوقفها والتفاتها إليه.

- ولكن...

تحركت شفتا المرأة فجأة.

- ولكن البشر يبذلون قواهم كلها في تدمير تلك الكتب المهمة، فتفقد الكتب المدمرة قواها. مهما ملكت الكتب من قوى هائلة، فهي تُسجن وتُمزق وتُباع، وفي النهاية تندثر. ليست مبالغة ولا تورية، بل هذا ما رأيته بعيني في الواقع حتى الآن،

ومن المؤكد تدمير الكثير من الكتب سوف يستمر في المستقبل.

ـ قد يكون هذا صحيحًا، ولكنها لن تُدمر.

اهتزت خصلات شعر المرأة ردًّا على كلمات رينتارو غير المتوقعة.

ـ مهما حاولوا تدميرها، فلن تُدمر بسهولة؛ لأن كثيرًا من النَّاس يتواصلون اليوم مع الكتب في أماكن لا تُرى. هذه حقيقة لا جدال فيها. أليس وجودكِ هنا الآن هو أبرز دليل؟

دُهشت المرأة للحظة خاطفة إزاء تلك الكلمات ذات القوة المؤكدة، فحركت حاجبيها.

كانت تلك أول مرة تُظهر المرأة فيها ما يشبه المشاعر.

لحظة صمت.

ثم فجأة سُمع صوتٌ غير متوقع يخترق تلك الثغرة.

- أحسنت القول أيها الفتى.

صوت قوي لرجل.

دُهش رينتارو وجال ببصره في أرجاء المكان، ولكن بالطبع لا أثر لبشر في الغرفة ما عدا المرأة.

- هذا هو الفتى الذي توقعته، لقد أبهرتني!

سُمع الصوت مرة أخرى، فالتفت رينتارو إلى يمينه مباشرة، فصُدم.

كان رجل المتاهة الأولى الذي يظهر على الشاشة، يبتسم لرينتارو ابتسامة خفيفة.

ثم تكلم الرجل مجددًا وهو يشرب الشاي الأخضر جالسًا باسترخاء كما هو عند الحافة المطلة على الحديقة:

- لا تَحَرْ أيها الفتى، ثق بنفسك، واصرخ في وجه تلك المرأة، قل لها: ألستِ أنت من تنظرين من برجك العاجي دون أن تفعلي شيئًا غير التحدث باستعلاء؟ قل لها: ألست أنت من يطمئن نفسه فعلًا بمنطق مريح؟

تحدث الرجل باستمتاع وهو يتأمل رينتارو المذهول.

- أيها الفتى، إن التغيير أمر في منتهى الصعوبة، ولكنك قلتَ لي كلمات من قلبك دونما خوف، وأنا أشكرك على هذا الصنيع، إنني بعد لقائك أكتشف أشياء جديدة كل يوم وأشعر بالدهشة، كان الأمر كما قلتَ، لم أكن محبًّا للكتب بالمعنى الحقيقي، فبالرغم من كل هذه الكتب التي كانت تحيط بي لم أنتبه إلى أن كتابًا واحدًا قد يحتوي عالمًا لا حدود له، ولكن في الحقيقة الاكتشاف الأعظم بالنسبة لي مؤخرًا لا يتعلق بالكتب.

رفع الرجل كوب الشاي الذي في يده ببطء.

- في الحقيقة الشاي التي تعده زوجتي لي في منتهى اللّذة.

صوت ضاحك وثري يُشعِرُ القلب بالدفء من أعماقه.

وبالتزامن مع تلك الضحكات جاء صوت مختلف هذه المرة من جهة الشّمال.

- ثق بنفسك أيها الضيف الصَّغير!

أسرع رينتارو بالنظر إلى الجهة المقابلة.

وبقي فاغر الفاه غير قادر على النطق، بينما كان الذي ينظر إليه بمتعة ضاحكًا هو الباحث بمعطفه الأبيض ووجنتيه السمينتين اللتين تعلوهما عينان تشعان حنانًا.

- ألست أنت أيها الضيف الصَّغير من سرّع سيمفونية بيتهوڤن التي أعشقها؟ تذكر ثقتك بنفسك آنذاك.

ضحك الباحث باستمتاع مجددًا وهو يومئ بتأنٍّ.

- سر بشجاعة في الطَّريق الذي اخترته بنفسك، ولا تكن مثل المتفرج الضعيف الذي يصرخ قائلًا: «لن يتغير شيء». واصلِ المشوار كما واصل ميلوس الركض حتى النهاية.

مال حاجبا المرأة قليلًا.

- الأماني وحدها لا تغير شيئًا...

- وبالرغم من ذلك، ألا ترون ضرورة المحاولة؟

هبط صوت عميق من السقف

نظر رينتارو إلى الأعلى، فوجد رئيس الشركة قد نهض من على كرسيه موجهًا حديثه إلى الرجال ذوي البدلات المحيطين به.

- لا يتعلق الأمر بالمنطق، بل بالاعتزاز بما نحن فيه وعليه.

حاول أحدهم رفع صوته بالاعتراض قائلًا ولكن، فأوقفته قبضة رئيس الشركة غير المتوقعة.

- ألم تأتوا هنا لأنكم تحبون الكتب؟

صوت هادئ، ولكنه يمتلئ قوة، فهدأت فجأة ضوضاء الرجال.

- إذًا، لندع المنطق جانبًا، ولنتحدث عن المثالية، نحن صُنّاع كتب، وهذا هو امتيازنا.

بدأ الرجال يُغيرون مواقفهم في وقت واحد مع ذلك الصوت المرح.

أعاد رينتارو بصره من أعلى السقف لينظر إلى المرأة أمامه.

- التغيير هو التغيير حتى ولو كان في منتهى الصغر.

استجابت المرأة لنظرات رينتارو، ولم تبعد عينيها، ولذلك أجاب متوجهًا إلى عينيها مباشرة.

- إننا جميعًا نؤمن بقوة الكتب، كيف لا تؤمنين أنتِ بها؟

ظلت المرأة واقفة بثبات دون أن تُحرّك ساكنًا.

تلاشت الكلمات، فسيطر السكون مجددًا على تلك المساحة الصَّغيرة.

الصمت الذي ملأ الغرفة لم يتبدد هذه المرة بسهولة، عميقٌ وثقيل إلى ما لانهاية، كما لو أنَّ ثلجًا يهطل ويتراكم بصمت وكثافة ليغمر أقدام الاثنين معًا.

صمت مهيب.

صمت يصاحبه شعور بالضغط إلى درجة الاختناق.

ربما هذه أطول فترات الصمت منذ زيارته لهذه المتاهة الأخيرة.

أخيرًا، أغمضت المرأة عينيها وتحدثت ببطء كأنها تهمس.

- أمر كريه...

ثم فتحت عينيها برفق وتأملت رينتارو.

- لا أفقد الأمل مهما حدث؛ لأنني ألتقي من حين لآخر بمن يقول لي هذا الكلام.

تحدثت بسلاسة ولكن بلا مشاعر كالمعتاد. وبالرغم من ذلك اختلف كلامها عمّا سبق في أنه لم يكن بالرتابة نفسها.

واطمأن رينتارو لرؤيته بريق لين يتماوج في عينيها، ومع أن ذلك البريق لم يكن سوى وميضٍ آنيٍّ سرعان ما تلاشى في أعماق العينين المظلمتين، إلا أن رينتارو رأى بريقًا مشرقًا.

- مراعاة شعور الآخرين!... طريقة تفكير لا أكرهها.

قالت المرأة كأنها تُحدث نفسها، ثم التفتت إلى الخلف كأنها انتبهت إلى شيءٍ ما.

ضوء أبيض ملأ أعماق الغرفة، انتشر الضوء ببطء، فبدأت مكتبة ناتسوكي المعتمة تُضاء. أخذت الشاشات والرفوف المتينة المتراصة جنبًا إلى جنب تتلألأ ببريق خافت.

- انتهى الوقت.

- انتهى الوقت؟

ـ لقد فعلتُ أشياء كثيرة غير معقولة، ولا يمكنني البقاء على هذه الحالة إلى الأبد.

واصلت المرأة الحديث وهي تحدق في الضوء الأبيض الذي يملأ المكان.

- ارحل هذه المرة؛ لأنك لو بقيتَ هنا وقتًا أطول، فلن تستطيع العودة.

تحية وداع لا مراء فيها وإن كانت مفاجئة.

طمأنت المرأة رينتارو المضطرب:

- لا تخف، إن كان الأمر يتعلق بصديقتك، فلا تقلق.

لم يكن لدى رينتارو ما يرد به على هذه الطلاقة فى الكلام، وبينما كان يومئ برأسه إيماءة كبيرة، ازدادت قوة الضوء من حوله ببطء.

- هل هو الوداع؟

- أجل ولقد كان...

تلعثمت المرأة هنيهة، ثم واصلت الكلام على الفور:

- كان وقتًا ممتعًا جدًا.

- أنا أيضًا سُعدت بلقائكِ.

أحنى رينتارو رأسه بأدب، أما هي، فلوت عنقها قليلًا.

ـ فتى مهذب! أم أن هذه مزحة حديثة لا أعرفها؟

ـ لا، لا، أشعر وبفضل لقائي بك أنني استطعت الانتباه مجددًا إلى أمور في غاية الأهمية.

وبعد أن شكرها جزيل الشكر، أحنى رأسه بوضوح هذه المرة، بينما ظلت هي تراقبه بصمت بعض الوقت.

ـ كلمات وداع لطيفة.

همست همسًا خافتًا، ثم رفعت يدها اليمنى، ولمست الشاشة المعلقة جوارها، وفي اللحظة ذاتها اختفت الشاشات الثلاث، وعاد المنظر الكئيب إلى ما كان عليه في الأصل من رفوف كتب فارغة.

وحين لمست يدها الرفوف، عادت الكتب هذه المرة إلى التوالد بعضها وراء بعض رفقة ضوء أزرق لتنتظم بالترتيب فوق الرفوف، وفي لمح البصر اكتظت الجدران على الجانبين بكتب سميكة.

- المكان هكذا أفضل.

قالت دون أن تبتسم.

وانتبه رينتارو على الفور أن هذا السُّلوك المفاجئ منها كان جوابًا على شكره لها.

- وأنا كذلك أرى أن هذا أفضل بالتأكيد.

أجاب مبتسمًا، غير أنها ظلت حتى النهاية بلا مشاعر، بيد أنها أومأت برأسها إيماءة خافتة، ولكنها مؤكدة.

زادت الأشعة المحيطة بهم من قوتها، وراحت تغلف الاثنين مع رفوف الكتب والأريكة.

ولم يكن أمام رينتارو إلا أن يظل واقفًا لا يحرك ساكنًا.

وسط الضوء، تحركت شفتاها النحيلتان اللتان تبدوان كأن الدم ينعدم فيهما، وبدا أنها تهمس بشيء، ولكن الكلمات لا تصل إليه، ثم أدارت ظهرها له وأخذت تمشي كأن شيئًا لم يكن.

مسترسلًا في الدهشة من أن سلوكها البسيط كان طبيعيًّا جدًّا، رافقت عيناه ظهرها وهي تبتعد مسترخية، ولا يبدو عليها أي ندم.

- شكرًا...

كان رينتارو على درجة غريبة من اليقين أن هذا ما قالته عند الوداع، وهو يستسلم لأشعة ضوء ناصعة البياض تحيط به.

*

تُرى كم مر من وقت؟!

عندما انتبه رينتارو وجد نفسه جاثيًا على ركبتيه فوق أرضية مكتبة ناتسوكي الخشبية التي اعتادها، وبين ذراعيه زميلة الفصل النائمة نومًا وديعًا.

وهو في هذه الوضعية نفسها، ألقى نظرة على عمق المكتبة، فلم يجد إلا الجدار الخشبي المقيت، وعندما حوّل ناظريه إلى الباب رأى رقائق ثلوج تتراقص في الخارج المضيء.

حين ناداها بصوت رقيق: يوزوكي! فتحت سايو عينيها المبهورتين دونما إبطاء.

- ناتسوكي.....؟

عند سماعه هذا الصوت الأليف تنفس الصعداء.

سايو التي كانت تنظر إلى الأعلى، توقفت هنيهة، ثم فتحت فمها:

- هل أنتَ بخير؟

- على الأرجح هذا سؤالي أنا.

وابتسم ابتسامة متكلفة، فأظهرت له سايو ابتسامة رقيقة.

ابتسامتها الساحرة نفسها قبل تمرينات الصباح.

جالت سايو ببصرها من حولها بشكل سريع، ثم عادت تنظر إلى رينتارو وهي تومئ برأسها إيماءة كبيرة.

- يبدو أنه عليك أن تعيدني إلى البيت.

- هذا ما وعدتك به.

أمسك رينتارو بيد سايو، ثم نهض واقفًا.

عندما نهضا كان كل منهما يقف في مواجهة الآخر مباشرة

داخل مكتبة ناتسوكي الضيقة، ومن الخارج، حيث تتراكم الثلوج بشكل خفيف، وعبر الباب الشبكي، كان يتدفق ضوء ناعم وخافتٌ، فبدت قامة سايو خلفه أكثر سطوعًا وإبهارًا من المعتاد.

- هل أقول لك، والحالة هذه، عودة حميدة؟

عند هذا السُّؤال المرتبك هزت سايو رأسها يمينًا وشمالًا:

- خطأ.

ثم ضحكت لرينتارو المحتار:

- بل قل: «ميري كريسماس»، أعياد ميلاد سعيدة.

سمع رينتارو عبارة لا علاقة له بها.

لكنه استسلم لإعجاب عفوي بصداها الجميل.

فأعاد العبارة نفسها وهو يبتسم.

فصل ختامي

نهاية الحكاية

كان الجد يحب زهرة الياسمين البرية.

وكان يعشق بشكل خاص الأزرق الكحلي الغامق منها، يستطيع رينتارو أن يتذكر، وكأنه في الأمس، وجه جده وقد ضيّق عينيه هنيهة بدهشة وسعادة ليتأمل البتلات الكبيرة التي تفتحت تحت أشعة الشَّمس الساطعة أوائل الصيف.

هذه الزهرة التي تمتزج بخطوطها الباردة المستقيمةِ خطوطٌ دافئةٌ متعرجة، يليق بشكلها اسم: "زهرة الياسمين البرية"، أكثر من التسمية الشائعة بين ناس الطبقة العليا، كليماتيس.

كان من النادر أن يقول الجد الصموت شيئًا كهذا وهو يزين أصيص النبات الصَّغيرعند مدخل المكتبة بزهرة الياسمين البرية.

ألا يمكن أن يفعل ذلك الواحد بنفسه؟

هكذا راح يفكّر رينتارو وهو يروي أخيرًا أصيص الزرع الذي كان قد أهمله، وهذا غالبًا ما يدل على أنه أضحى مرتاحًا في حياته.

ثلاثة أشهر مضت على رحيل الجد.

تقدم الزمن قليلًا جدًا، وتغيرت المشاهد قليلًا جدًا أيضًا. ذابت الثلوج وتفتحت أزهار البرقوق، وبدأت براعم الكرز في التفتح.

في خضم هذا التدفق الطبيعي للزمن، أخذ رينتارو يفتح المكتبة باكرًا في السادسة صباحًا كالمعتاد، لتهوية المحل الصَّغير، ثم يتناول المكنسة ويكنس درجات السلم الحجرية، ويروي بعدها الزرع اليافع في الأصيص، لينتقل إلى نفض الغبار الذي في الداخل.

- تعمل بجد!

تصدح يوزوكي بصوتها المشرق وهي تدخل حاملة حقيبة سوداء فيها آلة موسيقية، عندما يكون تنظيف المحل قد شارف على الانتهاء، ولم يعرف إلا مؤخرًا أن محتويات تلك الحقيبة هي آلة كلارينت باس، ولم يكن يعرف أن آلة الكلارينت يُمكن أن يُلحق بها باس، وأنها جزء مهم من فريق المدرسة الموسيقى الكبير الذي تتولاه يوزوكي بمفردها.

- كل يوم، كل يوم تعمل بلا تعب.

قالت وهي تجلس بشكل مريح على كرسي مدوّر صغير وسط المكتبة.

- لا داعي للتنظيف كل يوم بلا توقف، أليس كذلك؟.

- بل هذا جيد.

أجاب رينتارو ضاحكًا وهو يمسح كتب الرفوف واحدًا بعد آخر.

ـ فأنا ليس عندي تدريب صباحي مثلك يايوزوكي، ثم إنَّ التَّنظيف هكذا كل يوم يتيح اللقاء بكتاب ممتع.

ـ أنت واحد شاذ تقريبًا.

كلماتها التي لا مراعاة فيها للمشاعر كعادتها منعشة للغاية.

ـ ثم أليس كتاب هذه المرة مقيت بعض الشيء؟

قالت ذلك وهي تُخرج من حقيبتها المعلقة على كتفها كتابًا ضخمًا:

ـ لم أفهم منه شيئًا.

ابتسم رينتارو ابتسامة ساخرة.

ما اقترحه عليها بالأمس هو رواية غارسيا ماركيز «مائة عام من العزلة».

في البدايات، كان قد اقترح عليها أعمال أوستين، تلاه ستندال وجيد، ثم فلوبير... إلخ، معتقدًا أنَّ الروايات الغرامية الرومانسية ستكون أسهل للقراءة. وفي الأسبوع الماضي فقط انتهت سايو من قراءتها بشكل عام كما أخبرته، ثم قالت: إنها تريد قراءة نوع مختلف من الكتب.

لذا اختار لها غارسيا ماركيز.

ـ هل قرأتها كلها حقًا يا ناتسوكي؟

- طبعا قرأتها، ولكن منذ زمن بعيد جدًّا.

- كما توقعت أنت لست عاديًّا، بالنسبة لي كانت بلا معنى تمامًا، وفي غاية الصعوبة.

- يا له من أمر جيد!!

نظرت سايو بدهشة إلى رينتارو الذي راح يضحك وهو ينفض الغبار عن رفوف الكتب.

- جيد؟

- حين تجدين صعوبة في القراءة، فهذا يعني وجود شيء جديد عليكِ يا يوزوكي، اللقاء بكتاب صعب حظ كبير.

- ماذا تقول؟

وشعرت سايو بالإحراج.

- ما هو سهل في القراءة يعني أنك تعرفين المكتوب، لذلك فهو سهل بالنسبة إليكِ، لكن ما هو صعب يعني بشكل واضح أن المكتوب شيء جديد.

راحت سايو تحملق إلى رينتارو المبتسم كأنها تراقب حيوانًا نادر الوجود.

- كما توقعت، أنت فعلًا شاذ الأطوار يا ناتسوكى.

- توصيف قاس.

- ولكنه ليس سيئًا.

تأملت سايو رينتارو وهي تضع راحتها اليمنى على جبينها:

- يعني أنك جذاب بطريقةٍ ما.

فتوقفت يدُ رينتارو فجأة عن مسح المكتب.

وحين ألقى نظرة سريعة على سايو وجدها تبتسم ابتسامة عريضة وهي تلوي عنقها كأنها تتلصص عليه.

- يبدو احمرَّت أذناك.

- في هذا أنا مبتدئ وقليل الخبرة، على عكس أي شخص آخر.

- ماذا تعني مبتدئ وقليل الخبرة، وأنت تقرأ كتبًا جنسية مثل: "لوليتا" و"مدام بوڤاري" أم لعلك شهواني صامت؟

- إن واصلتِ هذا السُّلوك، فسأتوقف عن بيعك الكتب.

ممم ممم.... أيوا، تردد صدى صوتها المشرق وهي تنهض عن الكرسي، ليس بهدف التوجه إلى باب المكتبة، ولكن لتمشي بخطوات خفيفة جهة عمق المكتبة.

وحين بلغت الحائط الخشبي في نهاية الممر وضعت يدها عليه برفق.

- كما توقعت... الممر مسدود.

- ستكون ورطة لو لم يكن مسدودًا.

- ورطة حقًا، ولكن أشعر بالوحدة قليلًا، يبدو الأمر كله وكأنه كان حلمًا.

ورينتارو نفسه يعتقد أحيانًا أنه لم يكن سوى حلم!

ولكن حتى لو كان كل شيء حلمًا، فثمة شيء واحد فقط في غاية الوضوح بالنسبة إليه.

هو أنه لم يعد وحيدًا.

*

«لا أريد الانتقال، أريد العيش بمفردي»

قال رينتارو ذلك لعمته عشية أعياد الميلاد، وقبل وصول عربة نقل العفش بساعة واحدة، والمثير للدهشة أن العمة لم تُفاجأ كثيرًا بهذا الكلام الواضح غير المتوقع، عقدت ذراعيها المكتنزتين، وراحت تنظر بثبات إلى ابن أخيها الذي كان بدوره يحملق في عينيها مباشرة.

لعل ذلك الصمت المريب الذي بدا أنه طويل جدًّا، كان عبارة عن لحظات قصيرة، ثم باشرت العمة الكلام ببطء.

- كما توقعت، هناك أمر جديد يا رين تشان، أليس كذلك؟

سؤال لم يتوقعه رينتارو، ابتسامة خافتة ارتسمت على وجنتي العمة الموفورة الصحة وهي تنظر إلى الفتى الحائر.

- لا عليك، إذ يصعب أن تقول لفتى: بُح بكل أسرارك إلى عمة بدينة لم تتحدث معها من قبل حديثًا ذا أهمية.

طبعًا، كان يستحيل، بما هو عليه، أن يحكي عن مغامراته

العجيبة مع القط. والأهم من ذلك، أنه شخصيًا لا يدرك بوضوح ما الذي تغير داخله في أثناء تلك الأحداث العجيبة.

ومع ذلك، كان يريد ومهما يكن أن يمشي ولو قليلًا بالاعتماد على نفسه.

يفهم الآن بوضوح أن القول بعدم وجود خيارات، ليس فقط فرضية خطأ، بل هو مجرد حجة، ولو حاول الاختيار، فسيجد أن هناك طرقًا لا تُحصى في الجهات الأربع، وغاية الأمر أنك إما أن تختار أو يجرفك السيل.

«ماذا تفعل إن لم تثق بنفسك؟»

ألقى رينتارو هذه العبارة على محدثه في أعماق تلك المتاهة، وفي الوقت الذي ألقاها فيه أضحت صوتًا يوبخه. الكلمات تغدو قوة، ولذا قرر أن يبدأ السير معتمدًا على نفسه.

واصلت عمته الحديث بنبرة لينة بينما هو مطبق الفم لا يتكلم.

- ألا تفعل ذلك مُكرها؟

- مُكرهًا؟

- نعم، أي: إنك ربما لا تحب العيش مع أحد لا تعرفه كعمتك، فارتجلت ما قلت بشكل عفوي للتملص والهروب؟

- أبدًا، ليس هذا.

- حقًا؟

- على الإطلاق.

أجاب رينتارو بإيجاز وصرامة.

العمة التي كانت تفكر معقودة الذراعين، أومأت برأسها بعد فترة وجيزة إيماءة كبيرة وأبلغته:

- حسنًا، إذا قبلتَ الشروط الثلاثة التي سأطرحها، فسأفكر في الموضوع.

- الشروط ثلاثة؟

- نعم، والأول هو قطعًا الذهاب إلى المدرسة.

أُفٍّ! همهم رينتارو في داخله، إنها تعرف تمامًا تغيبه عن المدرسة طوال الوقت.

- الثاني: أن تتصل بعمتك هاتفيًّا ثلاث مرات كل أسبوع، من أجل الاطمئنان على سلامتك. والثالث...

انحنت العمة إلى الأمام وذراعها السمينة على خصرها:

- أن تستشير عمتك بجدية دون عناد إذا وقعت في ورطة، فليس من السهل أن يعيش طالب في الثانوي بمفرده.

لم يستطع رينتارو الرد على هذا الاهتمام الدقيق به.

إنها حقًا إنسانة رقيقة القلب، ردد في داخله. كل كلمة من كلماتها الودودة تفيض بمشاعر المراعاة لابن أخيها الغرّ.

مما لا شك فيه أنها لو كانت موجودة آنذاك في مكتبة ناتسوكي، لاستطاعت أن ترى القط المريب وأروقة الكتب العجيبة.

- ولكن الاتصال ثلاث مرات في الأسبوع قد يكون أمرًا صعبًا.

- أوه! وهل الاتصال بشركة نقل العفش، في اليوم المحدد، للإلغاء قبل ساعة واحدة من الموعد أكثر صعوبة؟ إذا كنت لا تنزعج سأتصل عوضًا عنك.

ليست طيبة القلب وحسب، بل ذكية أيضًا.

لا يمكنه الاعتراض.

أرجو منكِ ذلك، قال وهو ينحني، فسمعها تهمس في أذنه همسًا ممتزجًا بابتسامة:

- لقد بدأت تشبه جدك.

لسبب ما شعر أن تلك الكلمات هي أعظم مدح في الوجود.

*

- اللقاء بكتاب صعب حظ جميل!

هكذا كانت سايو تهمس لنفسها وهي تتأمل رواية «مائة عام من العزلة».

- بالمناسبة غارسيا ماركيز أحد الكُتّاب المفضلين لدى أكيبا. ربما قرأ كل كتبه الموجودة هنا.

- على عكس ما تقصدين، هذا الكلام لا يشجعني على قراءته ولكن...

لا بأس، وضعت سايو الكتاب الضخم في حقيبتها وهي تحدق في وجه رينتارو:

- ولكن إذا لم يكن ممتعًا، فسوف أزعل منك.

- هذا غير منطقي، فالمؤلف هو غارسيا ماركيز، ولست أنا.

- ولكن أنت من اقترحه عليَّ، وليس غارسيا ماركيز.

انبهر رينتارو وهو يتمتم في داخله أنه محاط بإناث ذكيات سواء أكانت عمته أم يوزوكي.

- آه، عليّ الذهاب فورًا!!.

نهضت سايو فجأة؛ لأنها انتبهت إلى أن موعد بداية التدريب الصباحي قد اقترب، أخذت حقيبة الكلارينت باس من فوق المكتب، وتوجهت بسرعة إلى باب المكتبة.

- وأنت أيضًا يا ناتسوكي عليك أن تأتي إلى المدرسة.

- هذا ما أنويه؛ لأنني وعدت العمة بذلك.

وعندما خرج لوداعها، وجد أن الجو صافٍ اليوم على غير المتوقع، وكانت هناك دراجة توصيل الطرود النارية الصفراء تعبر تحت أشعة الشَّمس الساطعة في الصباح الباكر.

قفزت سايو هابطة درجات السلم الحجرية أمام المحل، ثم التفتت إلى الخلف فجأة كأنها تذكرت شيء.

- ما رأيك؟ ألا تذهب معي لتناول الطعام في المرة القادمة؟

لهذه الكلمات التي قيلت هكذا بخفة، رمش رينتارو بعينيه مرتين، ثم ارتبك إلى درجة مخجلة.

ـ تناول الطعام معك؟

ـ أجل.

ـ لماذا؟

ـ لأنني مهما انتظرتُ، فلن تدعوني، أليس كذلك؟

أطلقت صوتها المنعش تحت أشعة شمس الصباح المشرقة.

ازداد ارتباك رينتارو أكثر، ولم يستطع الرد بسهولة، فواصلت سايو بوجه مذهول وابتسامة مريرة:

ـ لا أكره الحديث عن الكتب داخل المحل، ولكن إذا لم تُعرّض نفسك لأشعة الشَّمس من حين إلى آخر، فسوف تسوء حالتك الصحية. هل تنوي أن تسبب القلق لجدك حتى بعد ذهابه إلى الجنة؟

ـ لو قيل لجدي: إنني سأذهب لتناول الطعام مع فتاة، لقلق أكثر.

لو أن رينتارو كان، على الأقل، كما هو في المعتاد، لربما استطاع الرد بهذا الشكل المريح، ولكن هذه المرة بالتحديد كان رأسه فارغًا تمامًا، ولم يخطر في باله رد جيد ومناسب.

لو قال لها بشكل عادي وطبيعي: "إذا كنتِ مرتاحة

للخروج معي"، ثم جاء ردها الناشف: «سوف أصبر عليك»، فمن المؤكد أنه لا كلام بعد ذلك.

رمته سايو بابتسامة ليست هناك أكثر جاذبية منها، ثم أسرعت بالركض في الحارة، وعند سماعه وقع خطواتها المرح فتح فمه وصاح:

- يوزوكي...

التفت زميلة الفصل مندهشة، وقد ابتعدت قليلًا، إلى صوتٍ يصيح يوزوكي.

- شكرًا.

تردد الصوت الخجول بوضوح في أرجاء الزقاق الهادئ على غير ما توقع.

فوجئت سايو بتلك المباشرة غير المنتظرة.

أما رينتارو، فقد أراد أن يضمِّن تلك الكلمة التي لا براعة فيها ولا دوران مشاعره الصريحة الواضحة.

مشاعره نحو صديقة زارته مرارًا وتكرارًا وهي قلقة عليه، لم تكن من نوع واحد، فبعد تفكير طويل وجاد في الكلمات التي ينبغي قولها، توصل إلى كلمة عادية حقًا، ومع ذلك كانت أقصى ما يستطيعه من جهد في ذلك الوقت.

تحدث رينتارو مرة أخرى إلى سايو وقد وقفتْ بلا حراك:

- أشكركِ حقًا، فكل هذا بفضل مساعدتك لي.

- أنت ماذا تعتقد... هذا مزعج؟!

- حتى أنت يوزوكي يحدث أن يحمر وجهك خجلًا.

- مَن... مَنْ؟

قالتها بصوت عالٍ، ثم استدارت وجرت إلى الجهة المقابلة من الزقاق.

كانت شمس الربيع مبهرة للعيون في كل مكان، وبدا ظهر سايو بالزي المدرسي الخفيف كأنه يذوب وسط الأشعة.

فجأة تناهى إلى أذنيّ رينتارو الذي وقف هنيهة مودعًا بلا حراك، صوتٌ خافتٌ.

- اعمل بجد أيها الوريث.

اندهش وجال ببصره في المكان، ولكن لا ظل لأحد في الزقاق الهادئ، ظن لوهلةٍ أنه رأى ظهر القط العتابي وهو يجتاز بخفة قمة السور المواجه له، ولكنه لم يكن متأكدًا، آه، تنهد متأوهًا، إذ لا جديد في المشهد اليومي المألوف الذي يعرفه جيدًا.

ظل واقفًا بلا حراك حتى تعبت قدماه، ثم ابتسم أخيرًا ابتسامة ساخرة:

«سوف أعمل بجد، لكن على طريقتي».

ردد في داخله بشكل واضح، ورفع بصره عاليًا نحو السماء الصافية.

بعد تنظيف المحل، أعدّ شاي أسّام الهندي، وقرأ قليلًا كالعادة، وعندما حان الوقت أغلق الباب وتناول الحقيبة وانطلق إلى المدرسة. في الذهاب إلى هناك لن يكون سوى مسلسل متواصل من الأحداث المملة، لكنه سيحاول قدر الإمكان عدم إغضاب رئيسة الفصل الذكية لغيابه عن المدرسة دونما إذن.

المشاكل متراكمة كالجبال ولم تُحل واحدة منها، ومع ذلك، فوظيفة رينتارو الآن هي السير بنفسه على قدميه في طريق الحياة اليومية المتواضعة التى اختارها.

عاد إلى المحل وفتح الباب الشبكي الأمامي، ثم أخرج عدة الشاي من فوق المكتب بيد متمرسة، غلى الماء بالغلاية الكهربائية، وصبه في كأس شاي جده العتيق. وفي تلك الأثناء أيضًا كان تلاميذ المدرسة الابتدائية المجاورة يعبرون ركضًا في الحارة، وتتناهى إليه ضحكاتهم الصاخبة.

أخذ ظهور النَّاس بالازدياد، وأُعلنت بداية يوم جديد.

وسط رائحة الشاي العطرة، برفق فتح رينتارو الكتاب.

هبت رياح ببطء وهدوء، فأخذ جرس الباب يُصدر صوتًا صافيًا.

سوسكيه ناتسوكاوا:

وُلد سوسكيه ناتسوكاوا بمحافظة أوساكا في اليابان عام 1974 وتخرج من كلية الطب في جامعة شينشو. وفي أثناء عمله طبيبًا كتب روايته الأولى «روشتة الرب» التي فازت بجائزة شوقاكوكان ثم فازت كذلك بالجائزة الكبرى للمكتبات بصفتها ثاني أفضل رواية في العام. صدر له أيضًا رواية «شجرة البداية» و«حصن العلاج السريري» و«المنطقة الحمراء». اسم سوسكيه ناتسوكاوا غير حقيقي بل اسم شهرة صرّحَ المؤلف أنه جمع فيه أسماء من يحبهم من الأدباء والشخصيات الروائية: سو بمعنى عشب من اسم رواية وسادة عشب، وسكيه من اسم ريونوسكيه أكوتاغاوا وناتسو من اسم سوسيكي ناتسوميه، وكاوا من اسم ياسوناري كاواباتا.

ميسرة عفيفي:

مترجم مصري، من أبرز مترجمي اللغة اليابانية إلى اللغة العربية في الوطن العربي.

وُلد بمحافظة القاهرة وحصل على شهادة البكالوريوس من كلية العلوم، جامعة القاهرة. بدأ دراسته للغة اليابانية عام 1990م في «مركز الثقافة والإعلام» التابع للسفارة اليابانية في القاهرة، ثم سافَر إلى اليابان للدراسة في «معهد طوكيو للتعليم واللغات». عمل مترجمًا حرًّا من اليابانية إلى العربية، والعكس، كما عمل مترجمًا إلى اللغة العربية في مؤسسات إعلامية يابانية، أشهرها هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية، كما التحق بالوكالة اليابانية للتعاون الدولي فعمل مترجمًا ومُنسِّقًا لبرامجها.

من ترجماته: روايات «الكسوف»، و«حكاية قمر»، و«الإوزة البرية»، و«مقتل الكومنداتور»، و«البحر والغروب» و«1927».

BC_PUB
ISBN 978-603-92-0370-4
9 786039 203704
CLUB-BOOK.COM